جُحا في رام اللّه

د. بسام الحاج

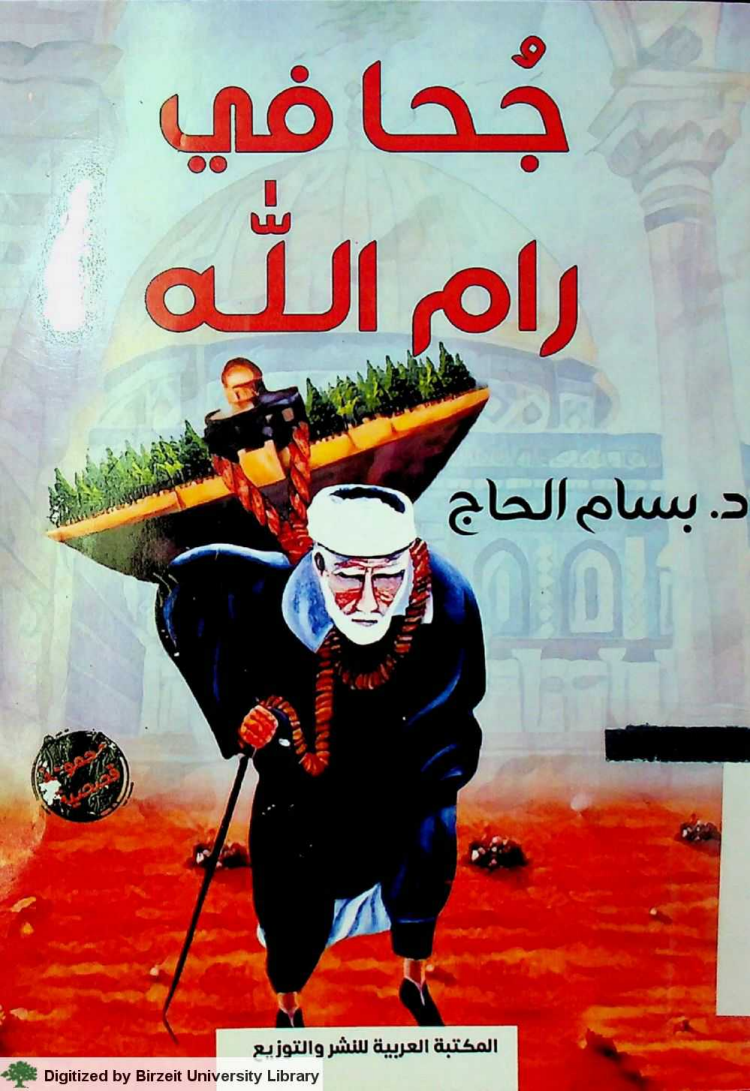

المكتبة العربية للنشر والتوزيع

Digitized by Birzeit University Library

جحا في رام الله

Digitized by Birzeit University Library

اسم الكتاب: جحا في رام الله
اسم الكاتب: د / بسام الحاج
تصميم الغلاف: زينب
الإخراج الفني: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2022
رقم الإيداع ٢٠٢٢ / ٢٠٢٢
الترقيم الدولي: ٩٧٨ – ٩٧٧ – ٦٩٣٩ – ٠٠٠٠

Gmail almaktaba٧٩@gmail.com

facebook Facebook.com/arabiclibrary٢٠١٧

٠١٠٣٠٣٦٥٨٠١ - ٠١٠١٤٩٧٧٩٣٤

جميع الحقوق محفوظة

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

Digitized by Birzeit University Library

323701

SPC
PJ
7928
.A4
J8
2022
BZU

جُحا في رام اللّه

مجموعة قصصية

مكتبة جامعة بيرزيت
85071
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
090000156922

د. بسام الحاج

للنشر والتوزيع

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

إهـــــداء

إلى روحِ من أشعلوا من دمائِهم مواقداً للحّرية،
شهداء فلسطين الأبطال.

إلى فلذات كبدي، أملي في غدٍ زاهرٍ، أولادي وبناتي.

إلى من كانت في قلمه دعوةٌ إلى التصويب،
وفي لسانه مسحةُ الصّدق والأمانة.

إلى روح من كان لهما سبب وجودي، والديّ رحمهما الله تعالى.

إلى كلّ من يعشقُ أرضَ الإسراءِ والمعراج.

إلى كلّ هؤلاء أهدي كتابي هذا.

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

المقدّمة

جاء هذا الكتاب(جحا في رام الله) مكمّلاً لما كتبته من قصصٍ قصيرةٍ في المجموعات القصصية السّابقة في موضوعاته، والتي تعكسُ وتلامسُ واقعنا السّياسي والاجتماعي في عالمنا العربي والمتجسّدة في قضاياه المختلفة، لذا فإن الأزمنة المتباينة والأحداث والشّخصيات المتعددة جاءت لتعبّر عن هذه القضايا. لكنّ هذا الكتاب جاء مختلفاً عما كتبته سابقاً، فشخصية البطل في القصص هنا واحدة لم تتغير، فكان جحا ينتقل معي من قصةٍ الى أخرى، يعيش بين النّاس؛ يتعرف على مشاكلِهم وقضاياهم الاجتماعية والسّياسية والثّقافية، فيقدّم نقده ورأيه بطريقة مضحكةٍ في ظاهرها مبكية في مغزاها، يخاطب الوالي، ويلفت نظره إلى قضايا الأمة، ويخاطب النّاس في قضاياهم ، ويدقق في مواقفهم؛ فيندهش من بعضها، وقد يقلّدهم حيناً؛ ليعرف الحقيقة بشكلٍ جلي، فيعود إلى رأيه الأول وحكمه الثّابث، لذا فقد يراه البعض مجنوناً أو غبياً، وقد يراه آخرون عبقرياً جريئاً، ومن هنا فقد جاء هذا الكتاب تحت زاوية الأدب السّاخر.

Digitized by Birzeit University Library

والأدب السّاخر -كما- هو معروف- لا يمكن أن يُكتب للإضحاك فقط، فليس هو أدبُ نكتةٍ أو تهريج، بل على العكس تماماً، هو أدبٌ مُبكٍ لمن تذوّقه وأدركه، ولا يتأتّى ذلك الا لصاحب الرؤيةِ الثّاقبةِ والذّائقةِ العالية، مع العلم أن لكلّ أديبٍ أسلوبه في تقديم هذا النّوع من الأدب.

نعم، قرأنا عن جحا، هذه الشّخصية التي وردت في القصص في أدبنا العربي، فوجدناه قد تعددت مواقفه وآراؤه، ورأيناه حيناً صاحبَ حكمةٍ ورؤية جلّية، ورأيناه حيناً آخر أنساناً بليداً، وتارةً نراه غبياً إلى حدٍ كبير، حتى أننا وجدناه لا يعرف كيف يعدّ حميرَه العشرة.

أما في هذا الكتاب فكان جحا- في غالب الأحيان- شخصاً ذا حكمةٍ بالغة، وذا نظرة ثاقبة، يرى ما لا يراه الآخرون، ويقدّر ما يمكن أن يحدث أو يكون، نراه صاحب رأيٍ ومشورةٍ، يضحكنا معه، بلغةٍ فصيحةٍ حيناً وبالعامية الفلسطينية حينا آخر، حين تكون هذه اللهجة أقرب الى التّعبير عن الحدث، وحين يراها الكاتب أكثر بساطةً وأعمق أثراً.

Digitized by Birzeit University Library

وفي الوقت نفسه نشعر به يتألم، يقول الحق، ولكنّه -كما يظهر لنا- أنه يخاف من سطوة الوالي، لأنه رحب الذّراع؛ فلا ينتقده بشكلٍ مباشر، بل يعمد إلى البساطة والالتفاف حول الفكرة؛ ينتقد الوالي ولكن دون أن يشتمه، وقد يسترضيه ويدعو له بطول العمر، ولكنّه قد يشتم ويسخر ممن يقفون في صفّه.

ولا أدّعي هنا أني أمتلك زمام الأدب بكل أبعاده، بل أدّعي أنني قدّمت ما أملكه من قدرةٍ ومعرفةٍ في هذا الأدب، آملاً ان تستمتعوا في قراءته، وتتفاعلوا مع جحا الذي أنهكه التّنقل بين البلدان العربية وقضاياه، وما يراه من مناظرَ بؤسٍ وقسوةٍ، وما يحسّ به من اضطرابٍ للقيم وانكماشها؛ لعلّه يجدُ يوماً الرّاحةَ في حياته أو الطمأنينةَ بعد مماته.

مع تقديري واحترامي

د. بسّام الحاج
فلسطين
رام الله-٢٠٢١م

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

تقديم

أ. د. إبراهيم السعافين

جحا في رام الله، مجموعة ذات نكهة خاصة

هذه المجموعة القصصية ذات سمة خاصة في الشّكل والمضمون، فمن حيث الشّكل تبدو ذات نسب بالمقامة من جهة، وبالرواية من جهة أخرى. فجحا في هذه المجموعة القصصية قاسم مشترك بينها جميعًا، نتعرّف على أحواله المختلفة في شؤون حياته مع أسرته الصّغيرة؛ زوجته خديجة أم الخير وابنه خير الذي نعرفه تلميذًا ثم طالبًا جامعيًّا ثمّ شابًا يبحث عن شيء من المتعة البريئة في ساحة البيت فتكسر ساقه فلا يجد جحا من الوالي تفهّمًا بل إدانة تغلّفها سخرية أو فكاهة سوداء وينتهي به الأمر إلى أن يُسجن عشر سنين. فتكون زيارة جحا لابنه ضربة بعقب بندقية الجندي القادم من بلد غريب تنجم عنها وفاته، ومقتل جحا هو السبب الذي أدى إلى انتقام عمر أبو ليلى من المحتلين.

نحن أمام بطل واحد في القصص جميعًا يقوم بوظيفة الكشف عن أحوال المجتمع في كل صوره وأزماته ومشكلاته. على أنّ جحا ليس صاحب شخصية نمطية في كلّ القصص على غرار شخصية جحا التي

Digitized by Birzeit University Library

تتنوع وتختلف لدى الشعوب وحسب الأحوال؛ فثمة اختلاف حسب مقتضى كلّ قصّة، فقد نجده ملتزمًا بمبادئ يحرص على الالتزام بها، وقد يضعف كما نرى في صورته مع الوزير، ليكتشف أن كل الظروف لا تؤدي إلى ما يبعث على التفاؤل بقدر ما نرى البيوت والأشجار والمزارعين والمواطنين ضحايا القوّة الغاشمة ممثّلة بجرّافات العدو. وإذا كان من اختلاف في ملامح شخصيّة جحا، فإنّ الصورة العامة لهذه الشخصية هي الشعور بالقهر والانسحاق أمام السّلطة بأشكالها المختلفة: الفقر والحاجة والمرض والأسرة والحكومة والاحتلال. والذي يجعل للقصص سمات مختلفة يتمثّل في أنها لا تتابع زمنيًا، على نحو ما نرى في قصة(نقال جحا) التي تدور حوادثها في مقتبل عمره وهو حديث الزواج .شخصية جحا تختلف في مزاجها وملامحها في كل قصّة، على نحو ما نرى في قصة (جحا والهندسة) حيث يضعف للغاية ويقبل أمام الإغراءات بالتنكّر للقيم، على أنّ هذا الضعف لا يلبث أن يتحوّل، إذ إنّه أمام موقف والده تعاوده يقظة الضمير، لكن السّمة الغالبة على التشكيل: اللغة الجارحة والفكاهة والكوميديا السّوداء والنّقد الاجتماعي والسياسي الذي يقترب من شخصية جحا النمطيّة ويفارقها إلى حدٍّ بعيد. ومن أمثلة الكوميديا السوداء التي لا تخلو من

Digitized by Birzeit University Library

مفارقة قصة (جحا يوزع الحلوى) حين يصرّ على أن يؤم المصلين في جنازة زوج أمّه حمدان ثم ينهال بالدعاء عليه في الصلاة . وتبدو ملامح خاصة في بعض القصص مثل (عندما أصبح جحا معلّمًا) أو (في بيت جحا حريق) حيث نلحظ لغة الفكاهة والكوميديا السوداء أوضح من الواقع السيء الذي يعيشه الناس كما يبدو في رسالة جحا إلى الوالي . وتبدو قصة (الشرطة وجحا) طريفة في نهايتها حيث يسامحه المشتكي ببساطة بعد أن كان موقفه في غاية التشدّد، وكأنّ القصّة رسمت تحوّلات المشتكي أكثر من شخصيّة جحا ولعل قصة(جحا والفيسبوك) مثلها مثل (جحا والكورونا) أقرب إلى معايشة اللحظة الراهنة، ولكنّها انفردت وبعض القصص مثل (قصة شهادات جحا) من حيث سردها باللهجة العامية التي توغل في السّخرية والنقد الاجتماعي بل تقف على تخوم النقد السياسي . أمّا قصة (جحا في بيت العزاء) فهي القصة التي تمثل المفارقة في التباس المشاعر بين الفرح والحزن وبين التهنئة والعزاء، ولعل المفارقة المبكية المضحكة التي تتشح بالكوميديا السّوداء تتضح في قصة(هتاف جحا) وفي (هدية جحا) التي تفارق الرمز إلى المباشرة قليلاً .

Digitized by Birzeit University Library

ومهما يكن، فإنّ المجموعة عالجت هموم جحا التي تمثّل هموم النّاس المختلفة والمتشابكة في تشكيل يفيد من الصورة النمطية لشخصية جحا في المأثور الشّعبي. ولعل قصّة العنوان (جحا في رام الله) ذات دلالة فنيّة ومضمونيّة، بوصفها عتبة رئيسيّة، إذ وظّف عيد الحب/ فالنتين لتصوير المعضلة الاجتماعية والسياسية؛ فالمعضلة الحقيقية تتمثل في تغليب المظهر على الجوهر، فالحب ليس يافطة أو احتفالًا، إنّما الحب هو جوهر الحياة، يحكم كل تفصيلات العلاقات الاجتماعية في كلّ مفصلٍ من مفاصل الحياة المختلفة. إنّ المجموعة القصصية (جحا في رام الله) ذات نكهة خاصة من حيث التشكيل والمضمون، يتوافر فيها الممتع والمفيد.

Digitized by Birzeit University Library

جحا في ضيافة الوالي

يرفع يدَه، يضعها على جبينه، ثمّ في فمه، يعضّ على أصابعه بقوة، لا يتركها إلا عندما يشتدّ ألمُه، يطلقُ زفيراً هادراً، يصولُ ويجولُ في ساحة منزله التي تملؤها الحفر... يقفز إلى مخزن البيت، يأخذ عنزته الوحيدة التي ملأت المكانَ ثغاءً، ثم ينطلق بها بعيداً عن بيوت القرية، وهناك يبدأ بالبكاء من جديد، ولكن ما فائدة البكاء؟ لقد ضاع كلّ شيء... فكّر كثيراً؛ فاهتدى أن يشرح قضيته للوالي، فهو حاكم البلاد، والسّاهر على مصلحةِ الأمّة، وهو الذي لا ينام وعين أحد الرّعايا تبكي، أو يرفّ جفنه من خوفٍ أو قلقٍ، هكذا قال في نفسه.

عاد مساءً، طلب من زوجته كاسة شاي بالميرميّة، وأن تغلق فمها بشكلٍ تام، ولا تتفوه بأية كلمة، سواء خيراً أو شرّاً، وتناول من فوق الخزانة ورقةً بيضاء، نفخَ عليها فتناثر الغبار في سماء الغرفة، نفضها من جديد، ثم أمسك قلمه، وبدأ يكتب رسالته، قال فيها:

سيّدي الوالي،

تحية الضّيف الهانئ،

Digitized by Birzeit University Library

أتَذكُرُ سيّدي عندما أرسلت لك رسالتي في الشّتاء. وما حلّ بنا من مصائب؟ لا عليك سيّدي، فلا أريد أن أقلّب عليك المواجع، شتاءٌ قاسٍ مضى، وصيفٌ حارٌ أتى، ولكنّي أعلمكم بما أنا عليه الآن:

قبل فترةٍ ذهبت سيدي، إلى رجلٍ في قريتي كنت أظنّ أنه صاحب علمٍ وخبرة، شكوت له همّي، وقلّة العمل، وضيق الحال؛ فأرشدني إلى بيع أرضي؛ كي أعيش بسعادةٍ وهناءٍ، ولكي أستطيعَ أن أتمكّنَ من تعليم ابني في الجامعة؛ ليصبحَ فهيماً عليماً، لا كأبيه، لا يعرف إلا الزّراعة وكثرةَ الكلام، والسّهرَ في الليل، والنّاسُ نيام...

قال لي: إذا لم تعلّم ابنك في الجامعة تظل أهبلا، وتضيّع عليك الدنيا قبل الآخرة، ويصير ابنك مثلك غلبان وشقيان.

قلّبت الفكرة في رأسي عدة أيام، والتي أبعدتني عن النّوم كثيراً، فقبلتها على مضض؛ لأنه لا يوجد لمثلي خيارات، ولا أعرف أحداً من الزّعمات...

ودّعت حقلَ زيتوني لآخر مرّةٍ في حياتي؛ فصرت أتفقده من جديدٍ، كأنّي أخلع روحي من جسدي- لا أراك الله إياها- فعندما وصلت زيتونتي الكبيرة الرّومية تذكّرت نصيحة أبي وقوله لي: هذه زيتونةٌ روميّة يا جحا، مغروسةٌ في الأرض، فرعها شامخٌ في السّماء،

Digitized by Birzeit University Library

زيتها طيبٌ، اهتم بها، وكن مثلها، أعطها من تعبك تعطيك من خيرها؛ فتجاهلتها.

وعندما نظرت إلى شجرة الزّعرور، تذكرّت أمي التي كانت تصنع منه (التطلي)، فرأيتها صفراء عاتبةً عليّ، كأنها تعرف ما سيحلّ بها، ولكن أملي كان كبيراً في المستقبل الذي أراه زاهياً، كان كفيلاً ليمحوَ هذا العتب، حتى أنّ شجرة (العُلّيق) التي كنت كلّما أمرّ قربها تتشبّث بي؛ فأقطعها لتعودَ إلى الحياةِ من جديد، لا أعرفُ سرّها، بدت هي الأخرى ذابلةً رغم اخضرارها وشوكها الذي (يخرمش) كلّ من اقترب منها، مررت بقربها هذه المرّة ولكنّها لم تتعلق بي! لم أدر ما سرّها!

وأثناء دوراني في الأرض لم أنس أن أقطف نبات (الجعدة) فهو دواءٌ للألم الذي تيقنت أنه سيصيبني وانا أفارق أرضي آخر مرة، وقلت في نفسي: اقطف يا حجا الكثير من الميرمية، فسهركُ سيطول، وأرضكُ ستزول، والشّاي رفيق كل السهارى، والشايّ يحتاج إلى الميرمية، لتفوح منه عبر المكان رائحةٌ زكيّة، والميرميةُ أيضا دواءٌ لألم البطن.

نعم سيّدي الوالي، بعت أرضي إلى رجلٍ لا أعرف عنه شيئاً، وصرفت ثمنها على تعليم ابني في الجامعة التي لم ترحمني؛ فأقساطها عالية، ومواصلتها غالية، وطلباتها متتالية، ويقولون أيضا أن شهاداتها

Digitized by Birzeit University Library

صارت بالية. ولكنّي ظللت أردّد في نفسي: الأرض لم تذهب سدىً، غداً يتخرج ابني خير ويتوظّف، والمال سيجري بين يديّ مثل الماء في العين التحتا، فيزول ألم فراق أرضي.

مرّت الأيام والسّنون وأنا أنتظر أن يتخرج ابني في الجامعة... وها أنا قد اشتريت عنزةً أرعاها مقابل أرضي التي صارت منيرةً بالأضواء الحزينة، نعم، إنها منيرةٌ يا سيّدي الوالي، ومليئةٌ بالغربان السّود، والأفاعي، والثّعالب، زيتونتها يبكي على أحبّته الأولين، ولم يعد يفهم اللغةَ الجديدة التي يسمعها، أكاد أسمعه يناديني، ولكنّي خذلتُه سابقاً، فكيف أُجيب نداءَه اليوم...

أما ابني الجامعي، فقد انطفأ ضوؤه الأخّاذ، وأُغلقت شبابيكُ الأمل أمامه؛ فأهدى كتبه الجامعيّة إلى العم (أبو محمود) بائعِ البليلةِ والتّرمس، وصار يشتغل عاملاً في الأرض التي بعتها قبل سنين، يعتريه الذّلُ حيناً، والسّخط أحياناً، كلّما تذكّر أنه حصل على علامة عليا في القضايا الوطنية في الجامعة...

أما التّاجر الذي بعته أرضي، فهو يركب الآن سيارةً فارهةً آخر موديل، لا أعرف اسمها، سمعت أنها غاليةٌ جداً، حتى أن ثمن أرضي التي بعتها له لا تكفي ثمنها، ويضع عطراً فواحاً، قالوا لي عنه: أنه

Digitized by Birzeit University Library

عطرٌ باريسيٌ، ولكنّه رجلٌ غريبٌ، فكلما صادفني في الطريق قال لي: ألف مبروك تخرّج ابنك، أن شاء الله يصير أحسن موظف في البلد.

ليس هذا فقط، بل أقسم أغلظ الأيمان بأن يكون واسطة خير عند الوزير، أو عندك أيها الوالي، فهو يبحث لابني عن وظيفةٍ تناسب شهادته.

أكتب لك سيدي اليوم، كي تقبل واسطة هذا الرجل؛ ليساعد ابني في الوظيفة، ليس إلا.

وسلمتم لنا، ابنكم الضاغط على الجرح، جحا...

أرسل حجا رسالته تلك، وبدأ يحدّث النّاس عن أمله في قبول الواسطة لتعيين ابنه في إحدى الوظائف... ولم ينتظر طويلاً؛ فقد حضرت دوريةٌ تابعةٌ للوالي، وأخذته معها، وقالوا له: أنت مدعوٌ معنا لضيافةِ الوالي.

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

زيارةٌ في ربوعِ الوطن

اتفق جحا مع زوجته أم الخير أن يزورا ابنتيهما المتزوجة في منطقة سلفيت، تلك المدينةٌ الجميلةٌ الوادعة، يشدّك إليها جمال شوارعها الواسعة النظيفة، وزيتونها الطيبٌ كأهلها، وكرمهم السّخيٌ، وكلما سرت في شوارعها القديمة تستحضر شاعرها الشّعبي المناضل راجح السلفيتي، وتعيش طرباً مع قوله:

بلدي بلدي، وبدي أحميها، وعلمي الحر، يرفرف فيها.

يرفرف فيها، علمي العالي ، فوق سهول، وفوق جبالي

وافدي كل رخيص وغالي، تاحررها وأحيا بيها...

ركبا مع سائق سيارة أجرةٍ، شاب عشريني، لطيفٍ ومؤدب، كان السّائق مستمتعاً مع المذياع الذي كان يرفع صوته عالياً، كأنه قد عانق السّماء بفرحةٍ ما، أو كأنّه ألقى هموم الدّنيا خلف ظهره، والتقى مع إحدى سمفونيات الطرب الرّاقية، رأسه يتمايل مع الألحان كما النّسائم تلعب بأغصان السّنديان، ليطرب مع أغنية (شدّي حيلك يا بلد).

قطع المذيع تلك اللحظات السّعيدة على السّائق ليعلن عن موعد نشرة الأخبار، حيث قال فيها: تصادف اليوم ذكرى مرورِ ربع قرنٍ على اتفاقية أوسلو...

Digitized by Birzeit University Library

تنهد جحا ثم قال:

آآآآخ ع هذيك الأيام يا أم الخير، بتذّكري لما خطبتك، قبل أوسلو بشويّ، وأبوك الله لا يوفّقه، كان يقلّي: يلّا يا عمّي، قوم روّح، الدنيا انتفاضة، والنّاس ظبت حالها، والطرق بتسكّر، واليهود بدخلوا على قريتنا، بلاش يوخذوك معهم، بدّك بعدين انصير إنلف عليك من سجن لسجن، هذولا يهود، بس ربنا الّي بقدر عليهم، شوف الدّول العربية كيف نامت قدّامهم! شوف أميركا كيف دعمتهم! حتى روسيا الّي كنّا مركنين عليها صارت معهم!

الله يسد منافسو أبوكِ، مثل ما كان يسد منافسي.

- واااال يا حجا، عشان بخاف عليك، الحمد لله هينا اتجوزنا وخلّفنا، وصار إلنا إولاد ودولة.

-والله إنك هبلة مثل إمك، دولة كال، مرحبا يا دولة، مهو وجهك مثل أوسلو، خراب ديار ودمار، وكشف أسرار.

- الله يسامحك على كل حال، شو هلحكي يا زلمي؟ أوسلو خلّت إلنا رئيس وحكومة، وعلم برفرف ع كووووووول المباني، ونشيد وطني، وأمن، ومدارس، وجامعات، وشرطة وطنية، ووزارات كثيرة،

Digitized by Birzeit University Library

بعد ما كنّا امشردين هان وهان، صار النا وطن وهوية، بدّك شي أكثر من هيك؟

- بقلك هبلة، مش إمصدّقة.

ثم التفت إلى مستعمرة (أرئيل) التي تحطّ على جبال سلفيت ومردة وكفل حارس واسكاكا كأنها ثعبانٌ مرقّطٌ بألوانٍ مختلفة، يلتفّ على فريسته، وينفث سمّه الأسود على كلّ من يقف بوجهه. تنهّد بعمق، وقال:

- شوفي المستعمرة هاي والمستعمرات اليّ مثلها إلّي إملّيات البلاد.

- مهيّ موجودة قبل أوسلو، وإلا أنت مش عايش في فلسطين؟

- ولك قبل أوسلو كانت المستوطنات قليلة، زادت أكثر من ٧ أضعاف من إلّي كانت عليها، والمستوطنين كانوا ١٢٠ ألف، اليوم أكثر من ٧٠٠ ألف قرد ملّون، برقصوا فوق روسنا، لا اخلينا إنّام في الليل، ولا نعيش ونشتغل في النّهار، سجنونا وقتلونا وهدموا بيوتنا وبسرحوا وبمرحوا قدّامنا، وبتقليلي أوسلوا والسّلام!

- قلّي يا ابن عمّي، مين إلّي جاب السّلطة على بلادنا غير أوسلو؟ ومين إلّي جاب أوسلوا غير الانتفاضة والشهدا والأسرى؟ والا اليهود من سواد عيونهم وافقوا على السّلطة؟

Digitized by Birzeit University Library

- والله أهلاااااااااااً سلّطة.

- يبيي عليك وعلى كشرتك إلّي تقطع الرّزق، أقلك، والله طلّت أخوي الظابط عليّ وهو حاطط النّجوم على كتفة بتسوى الدّنيا وما فيها، وإلا صوت الإذاعة في المدرسة على الصّبح وهي تنشد فدائي، بردّ الرّوح...

اشتدّ النقاش بينهما، تدخل السّائق ليهدئ من حدّة النّقاش، فقال: كل واحد يعمل الّي بشوفوا مناسب، ريحوا حالكم وغيركم بشتغل.

ولكن بلا فائدة، فقناعة كلّ منهما تختلف عن الآخر.

وبعد فترة، توقّفت السّيارة وهما منشغلان في إقناع بعضهما، وقام السّائق بإخفاء سكين كان يحملها تحتّ الكرسي، وقال لهما: حضّروا الهويات، هناك حاجز على الطّريق...

قال الجندي الملّون بصوتٍ عالٍ وهو ممسكٌ بندقية (العوزي): هات هويات... دقّق فيهما بشكلٍ جيد، ناولهما إياهن، وقال: يلّا روخ...إرجع من هون ... ممنوع دخول... (سيجر).

- بس يا خواجا بدّي أروح عند بنتي، واليوم عيد، والعيد فرحة مش همْ وغمْ ونكد، والا إنتو مش من البشر؟

Digitized by Birzeit University Library

- سكّر تمك...بخكي إرجع بسرعة، ممنوع يعني ممنوع، انت مش إفهم، يلّا روخ من هون، (عرفيم ملخلوخيم)..

أدار السّائق سيارته وقد تغيّر وجهه إلى لونٍ أسود، نظر إلى المرأة فهدأ، وعاد يبتسم ويتمايل برأسه، ويطقطق أصابع يديه...

نظر جحا إلى زوجته نظرةً غريبةً ولم ينبس ببنتِ شفة، وبعد فترةٍ وجيزةٍ قطع سكونَ المكان صوتُه العالي حيث صار ينشد: فدائي، فدائي، فدائي يا أرضي يا أرض الجدود.

وأكمل: إنشدي معي إذا بدّك، بجوز النّشيد يفتح النا أبواب الحاجز، والا بخليني أطلّ على أختي في مخيم اليرموك في سوريا، بجوز النّشيد يرجّع إلنا يافا وحيفا أو يازور أو الفالوجة، بجوز النّشيد يخليني أصلّي في جامع حسن بيك، والا أزور بيارات يافا وآكل من برتقالها، وأصيد من سمك عكا، وأقف على سورها وأشم هواها.

إنشدي يا بنت عمي، إنشدي يا غالية، إنشدي.

ولكن السّائق لم ينطق بأية كلمة، بل كان ينظر إلى كرسيّه مرة وإلى المستعمرات مرات، ثم ينفث دخان سيجارته عالياً...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا في رام الله

لم يكن حجا يحبّ زيارة مدينة رام الله، فكلّ من يزورها يفتن بجمالها الأخّاذ، وهوائها العليل، ورائحةِ الفلافل الفوّاحة الصادرة من مطعم عبدو في شارع القدس، ومن رائحة النّعناع وأوراق العنب، مع تلك العجوز التي تضعه أمامها على الرّصيف منذ سنوات طويلة، فهي تبيعه للمارّة، تمسك بيدها كرتونةً من الورق، ترفعها فوق رأسها، فتظلّل عليها من وهج الشّمس، وحينا من حبات المطر، يمرّ الناس من أمامها، يقفون ويدققون النّظر فيما تعرضه، هذا يأخذ ورقاتٍ يقلّبها بين يديه، فيتفحصها كخبيرٍ ذي علمٍ ومعرفة، وذاك يجادلها في الأسعار علّه يظفر بسعرٍ أقل مما طلبته، وآخر يسألها: من أين هذه الخضراوات؟، وهل هي بلدية ولم تخالطها الكيماويات؟

نعم، كان يشتهي كلَّ شيء في المدينة، ولكن ضيق حاله الزمه قريته البعيدة، يحرث أرضه، ويزعر خضرواته، ويقطف زّيتونه، ثم يبيعه في قريته، فهو لا يصل المدينة الا مضطراً.

وصلها هذا اليوم، وقف عند دوّار المنارة الثابت بأسوده الحجرية الأربعة، رابضةٌ فوق الأرض، ينظر كلّ أسدٍ إلى جهةٍ من الجهات

Digitized by Birzeit University Library

الأربعة، رآها تقاوم الاحتلال بشكلٍ مختلف؛ فهي دالةٌ على عراقة الأرض وفلسطينيتها، تدلّ على تشبّثها بالمكان الذي يحاول الاحتلال تشويهه وسرقته، يراها مقيدةً رغم قوتها، صوتها قد قطعه الزّمن.

وأخذ ينظر الى المارّين، فاستمتعَ بروائحهم الفوّاحة وبمشاهدة ملابسهم الجميلة، وشاهد أمامه أمراً غريباً؛ السّيارات تمرّ، وتزيّنها الورود الحمراء، فظنّ أن عرساً كبيراً لأحد المسؤولين في البلد يمرّ من أمامه، وهؤلاء هم المدعوون إليه؛ فهم في أجملِ لباس، وأبهى زينة، وأعطارهم تفوح من النّوافذ، وهذه المشاهد لا يرى شبيهها إلا في أعراس أبناء الباشا التي تحدث في قريته.

وقف على الرّصيف، وأخذ يلوّح للسّيارات وراكبيها، ويقول بصوت عالٍ: مباااااااااارك يا جماعة، إن شاء الله بالرّفاه والبنين، الله يفرحكم، ويجعل التّمام على خير.

وظلّ يلوّح لتلك السّيارات مدّة طويلة، ثم سأل أحد المارّة.

- عرس من هذا؟

- أنه فالنتاين.

- ااه فالنتاين، مبروووووووك يا فالنتاين، ما شاء الله معارفك كثر، أكثر من معارف الوزير أبو ريالة.

Digitized by Birzeit University Library

تعب جحا من الوقوف على الرّصيف والتلويح للسّيارات، ولم يشتر ما كان يريده، ثم عاد إلى بيته مسرورا. فوجد زوجته أم الخير تلبس فستاناً أحمر، ابتسمت له، ثم دنت منه وقالت:

- كل عام وأنت بخير يا حبيبي.

- أهذا اليوم هو عيد الأضحى، أم ذكرى زواجنا، وأنا لا أدري؟؟!

- لا يا جحا، جارتنا قالت: أنه فالنتاين.

- حتى أنت يا أم الخير، تريدين الذّهاب إلى عرس فالنتاين؟؟!!

- أي عرس يا رجل؟ فالنتاين عيد، عيد الحب.

- أي حبّ؟

- يووووه يا جحا. الحبّ يعني الحبّ، فالنتاين يعني الحبّ.

- اااااه، الآن فهمت! يخرب بيتي كم أنا غبي! يعني كلّ الذين رأيتهم اليوم يحتفلون بعيد الحبّ؟؟!

- نعم يا جحا.

نهض من مجلسه مذعوراً، ولبس حذاءه القديم، صاحت به زوجته: إلى أين؟ واليوم عيد الحبّ.

Digitized by Birzeit University Library

-إلى المدينة وأهلها، والمارّين بها، إلى محلِ الورود، إلى المدارس، إلى الجامعات، إلى المساجد، إلى الكنائس، إلى محلاتِ بيع البيتزا، إلى القاهرة وعمان، إلى سوريا والعراق والسودان، إلى السّماء...

- وفالنتاين، والحب، والفستان الأحمر!

- إلى جهنم وبئس المصير.

ثم غادر قريته متوجهاً إلى المدينة، وصار يغلي كالمرجل كلّما لاحت أمام مخيلته صورٌ وأحداثٌ كثيرة: فتذكر جاره وهو يضرب زوجته لأنّ

ها لم تحضر له الطعام باكراً، أما عندما أحضرت له حصتها من اللّحم من عند أهلها تبسّم، ودعا أصدقاءه إلى وليمةٍ لذيذةٍ.

وتذكّر كيف صار حزيناً عندما احتاج إلى بضع دنانير، فذهب إلى الباشا وطلب منه مالاً، فلم يعطه، وعاد خائباً باكياً.

وتذّكر صاحب البقّالة الذي لم يعطِ ابنه خير علبة عصير؛ لأن أباه لم يدفع دينه منذ أكثر من شهرين. وتذكّر أخاه الكبير الذي كان يسبق المصلّين إلى الصّف الأول في المسجد، ولكنّه لم يقبل أن يقرضه مئة دينارٍ عندما جاء الشّتاء وغمر منزله الماء، ورجف أبناؤه كثيراً.

Digitized by Birzeit University Library

تذكّر ابن جارهم، وكيف كان لطيفا قبل أن يتقدّم لخطبة ابنته، ثم تحوّل إلى أسدٍ مفترسٍ بعد زواجه منها، مما اضطرها العودة لبيت أبيها، ولزمته حتى تبتعد عن كلام النّاس الجارح، وحتى تسلم من أذاهم بسبب خروجها من بيت أبيها وهي مطلقة.

وتذكر تلك العجوز التي تجلس من الصباح حتى المساء لتبيع النعناع، وما تعانيه من حرّ الصيف وبرد الشّتاء، وظلم أبنائها لها...

تذكّر كلّ هذه الأحداث حتى وصل إلى المدينة، فوقف وسطها، وحمل لافتةً كبيرةً كتب عليها: أيها النّاس، تعلموا الحبّ أولاً، ثم اصنعوا له عيداً. ثم أخذ يصيح:

الحبّ أنك لا تؤذي جارك، الحبّ أنك لا تسرق أحداً، الحب أنك لا تظلم غيرك، الحبّ أنك تعطف على الفقير، الحبّ ألا تطعن أحداً في ظهره وأنت تبتسم في وجهه، الحبّ أن تدمعَ عيناك من منظرِ بؤسٍ أو حالة شقاء، الحبّ أن يخفقَ قلبُك لحالة ألم، الحبّ ليس ورداً أحمر ولا يوم فالنتاين، الحبّ قلبٌ أبيضٌ ولسانٌ جميل.

وظلّ ينادي حتى بُح صوتُه ثم تلاشى.

Digitized by Birzeit University Library

جحا والبقرات

المواطنون يتذمّرون، الأسعار ترتفع في الولاية، الإذاعات المحلية تتصل مع المسؤولين، الأغنيات الوطنية تُبَث في الإذاعات، التحّليلات الاقتصادية في كل زاويةٍ وجانب، التّحليلات السّياسية على لسان كلّ، الأرق يعمّ الجميع، أخبار الوضع الاقتصادي صارت على ألسِنة العجائز قبل الشّباب، نساءُ المخيم قبل رجالها كذلك تتحدّث عن حروبٍ التي تلوح بالأفق، والأزمات المالية القاسية التي تسبقها، والتي سوف تبقى سواء بحربٍ أو بدون حرب.

أما حجا فلم يقتنع بوجود أزمةٍ اقتصاديةٍ تعصف بالولاية، والتي يتناقلها المسؤولون في أخبارهم، ولم يقتنع بالتّحليلات التي يقدّمها الاقتصاديون والسّياسيون، ويراها تحليلاتٍ سطحيةً لا تنمّ عن دراسةِ الواقعِ بشكلٍ سليم، فظلّ يقول: أين تعلم هؤلاء؟ أم ليس لهم أعين لا يرون فيها؟ أليس لهم عقول يفكّرون بها؟ أم لهم أهداف مخفية؟ والله لا أعرف ماذا علّمتهم الجامعات!

فكّر كثيراً في الأمر، وأغلق أذنيه أمام من نصحوه بعدم الكلام، لأن بعض الكلام عند الزّعمات العربية حرام، ومن وقع في الحرام لقي

Digitized by Birzeit University Library

العقاب، لكنّه أهمل كلّ ذلك، واتصل بالخط المفتوح في برنامج (بكم نحيا).

- ألو، مرحبا، أنا سأترك الحديث في السّياسة الآن، ولكنّي أريد أن أخفّف أزمة الوالي المالية الممتدّة، وتضميد الوطن الجريح.

- أهلاً وسهلاً، بأخي المتّصل، من معي؟

-أنا جحا، وأملك حلاً لكلّ مشاكلِ البلد.

استغرب المذيع من هذا الاسم، وقال لضيفه الوزير: أو ما زال جحا يعيش بيننا؟

ثم قال الوزير:

- والله، أتمنى يا جحا أن تساعدنا لنحلّ هذه المشاكل.، لقد أتعبتنا.. هه...هه...هه.

- يا سيادةَ الوزير، لا تضحك، ولا تقاطعْني؛ فأنا إنسانٌ حرٌّ، ولست موظفاً عندك، أنا أملكُ حريتي، أتعرف لماذا؟ لأنّي قدّمت استقالتي من كلّ الوظائف الحكومية، واشتريت حماراً أنقل عليه أغراضي وأحرث عليه أرضي الطيّبة، ابتعدت عن الخائفين والمنافقين، والتحقت بالأصالة والطيبة، صرت حرّاً منذ نعتني المسؤول عنّي في العمل بالحمار، بصقت في وجههِ ثم غادرت، وقلت في نفسي: أقود

Digitized by Birzeit University Library

حماراً إلى أرضي خيرٌ من أن يقودني حمارٌ في عملي؛ فصرت حرّاً طليقاً، والحريةُ لا يعرف طعَمها العبيد، صرت عصفوراً أنتقل من شجرةٍ إلى شجرة، أغنّي أجملَ الألحان، وأقول رأيي بحرية، دونَ كذبٍ أو رياء، حتى أن لساني صار يتحرّك بسهولة، ألا تلاحظ ذلك؟

تدخل المذيع قائلاً: أرجو أن تحترم المقامات، إذا عندك اقتراح، تفضل احك، نحن نسمعُك.

– نعم عندي، أرجو أن تبلغوا الوالي، كبيرَ البلد، أنّ بقراتِ عزيز الوطن، ما زلن سِمان، فاحلبوهنّ سبع سنواتٍ متتاليات، وإن هزلن فلا تصدقوهن، واستمروا في حلبهن، وإن امتنعن عن الحليب، ابدؤوا في جلدهن، ثم اعمدوا على ذبحهن، الواحدة تلو الأخرى، فالبقر خُلقت للحليب أو الذّبح، ولا تصدّقوا من يؤول لكم رؤيته بالتقشّف، فالتّقشف أُعدّ فقط لمن يحملون همّاً كبيراً للوطن.

– ماذا تقول يا حجا، لم نفهمْ منك شيئاً؟

– الوالي، والحاجب، وقائد العسس، حتى ذاك الموظّف الذي يدّعي أنه يقدّم المنح والمساعدات للمواطنين البسطاء يعرف، وكل فطينٍ في الولاية لا بدّ أنه يفهم.

– ألو، ألو، ألو... انقطع الخط، ما رأيك يا معالي الوزير؟

Digitized by Birzeit University Library

- انس كلامه، هذا واحد يتفلسف، الشّعب كلّه معنا، ولا بدّ لهم إلا أن يقدّموا خدماتِهم للوطن، ألا تلاحظ صبرهم، الا تلاحظ انتماءهم الوطني؟

انتهت المكالمة والمقابلة، وبدأت صافرات السّيارات العسكرية تجوب الطرقات، وبدأ العسس بالبحث عن جحا في كلّ مكان حتى في أزقةِ المخيم الحزين، التي تفوح منها رائحة العفونة، وكلما وقعت أحذيتهم على الماء الرّاكد أمام البيوت تلطخت الجدران من جديد، تنظر النّساء إلى المياه التي دخلت إلى المنازل بقهر، فقد انتهين من تنظيفها للتّو، بعد أن تألمت ظهورهن من كثرة الانحناء، فتلك الحفرُ على مدخلِ البيت- والتي وعدهم مديرُ المخيم عدّة مرات بإصلاحها- ما زالت مصدر إزعاج لهن.

ظلّت نساء المخيم ينتقلن من بيتٍ إلى آخر، يتهامسن حيناً فيما جرى: هل صحح أن جحا سرق مالاً قبل أن يترك عمله؟! ويدخلن في التّحليلات السّياسية الجديدة أحياناً أخرى، فلم تعرف أية واحدة منهن سبب البحث عن جحا، قالت إحداهن: يبحثون عنه ليعرفوا الموظف الذي شتمه، أما الأخرى فقالت: يجوز من أجل أن يعيدوه إلى شغله السّابق، لقد ظلموه، والظلم في بلادنا لا يدوم.

Digitized by Birzeit University Library

وبقي البحث عن جحا مستمراً، ولم يعرف أحد من أهل المخيم السّبب.

أما ذلك العجوز الحكيم قال: يريدون أن يفهموا ما قاله على التّلفاز ليكافئوه بطريقتهم، وربما ليفهموا كيف امتلك ابن المخيم أرضا؟...

Digitized by Birzeit University Library

جحا وحمير الوالي

اجتمع أهل القرية للمرّة العاشرة يناقشون قضيتهم التي ما زالت تؤرّقهم منذ زمن، حيث مصادر المياه شحيحةٌ في القرية، وعيون الماء بعيدةٌ عنها، ولا يوجد وسيلة لنقلها. بدأت الأصوات تعلو، والآراء تختلف، والاقتراحات تتعدّد، فتاه الرّجال في إيجاد الحل. وعندما اقترح عليهم جحا بأن يرسلوا خطاباً إلى الوالي علّه يساعدهم في حلّ مشكلتهم؛ وافقوه الرّأي وطلبوا منه أن يكتب تلك الرّسالة.

كتب جحا الرّسالة، شرح فيها صعوبة وصول المياه إلى القرية. فكان فرج الله قريباً. نعم، لقد استمع الوالي إلى رسالة أهل القرية، تعاطف معها كثيراً؛ فأرسل لهم حميراً من عنده؛ كي تخفّف عنهم أعباء الحياة، حيث تساعدهم في نقل المياه.

بدأت الحمير في نقل المياه يوماً وبعض يوم، ورغم نهيقها المتكرر، ومشيها الفوضوي، الذي لم يعجب أحداً من أهل القرية إلا أنها امتنعت عن العمل، وصارت تضرب بأرجلها كلّ من حاول ضربها أو الاقتراب منها.

Digitized by Birzeit University Library

حاول جحا وأهل القرية التعامل معها بعقلانية، ومحاولة اقناعها بالعمل، ولكنّها أصرّت على موقفها من البلادة والرّفض.

فكّروا بالمشكلة، اهتدوا أخيراً إلى الحل...

قدّموا لها الشّعير والبرسيم، وحصّةً من المياه التي تنقلها، أكلت حتى شبعت، وشربت حتى ارتوت، ثم بدأت بالعمل.

وفي اليوم الثاني، عادت الى طبيعتها من الغباء والبلادة؛ فامتنعت عن العمل من جديد. حلّل أهل القرية سبب امتناعها عن العمل؛ فقال أحد الناس - وهو عامل في قصر الوالي يعمل في تنظيف ساحات القصر الخارجية- : ربما لأنها تنام في العراء، لا بدّ أنها شعرت بالبرد.

أدرك الجميع أنّ هذه الحمير تحتاج الى كثيرٍ من الدّلال، فهي حمير الوالي، وليست كباقي الحمير، فأطعمها أهل القرية أكثر مما تستحق، وطلب منهم جحا أن يدخلوها في بيوتهم، ففعلوا.

لم تعدْ منازلهم تكفيهم مع الحمير، فصاروا ينامون في خِيَمٍ نصبوها خارج بيوتهم...أما زوجته (أم الخير) فكانت تسهر طويلاً كي تجمع مع نساء القرية الحشائش الخضراء لحمير الوالي- فلم تعد هذه الحمير تأكل أي طعام، فقد أدمنت على أكل الحشائش الفتية التي يضعونها في

Digitized by Birzeit University Library

قفافٍ نظيفةٍ ويقدمونها الى جمهرة الحمير- حتى أهملت زوجها وبيتها؛ فجاع جحا وأولاده، وجاع أهل القريةِ معه.

حلّ الشتاء، وأهل القرية ما زالوا ينامون في خيامٍ مهترئة، أما حمير الوالي فصارت تنام في غرفٍ مسقوفة بالأخشاب، دافئة، بعيدةٍ عن البرد والمطر؛ فمرض النّاس من شدة البرد، وزاد الوضع سوءاً، حيث مرض الأطفال أكثر من غيرهم، وتشتت العائلات.

لم يعد أهل القرية يطيقون هذا الوضع، اجتمعوا من جديد، وصاح بعضهم أمام جحا: لم نعد نطيق هذه العيشة؛ أولادنا مرضوا، نساؤنا أُرهقت، طعامنا قلّ، فجدْ يا جحا حلاً لهذه المصيبة التي حلّت علينا فوق مصائبنا التي تحيا معنا. ثم فوّضوه من أجل مخاطبةِ الوالي من جديد لحلّ قضيتهم.

أرسل جحا رسالةً جديدةً إلى الوالي كتب فيها:

عزيزي الوالي، أرجوك، أتحدّث إليك نيابةً عن كلِّ المقهورين المظلومين، عن كلِّ من التصق جلدُه بعظمه، واتسعت ملابسُه عليه بعدما تمزّقت، باسم من أعياهم المرض، بعدما جاعوا فسقموا، ولم تعدْ عندهم طاقةٌ على الاحتمال، أقول: خذ حميرَك التي أرهقتنا بالتكاليف، والتي لا تعمل بمقدارِ ثمن العليف، والتي تكاد أن تستولي على بيوتنا،

Digitized by Birzeit University Library

وتحوّلنا إلى خدمٍ لها، أو مشرّدين حولها، أو متسولين بين اللئام، نحن أولى ببيوتنا من حميرك الجائعة، فهي تأكل كثيراً ولا تشبع، كلامنا معها لا يُسمع، دلالنا لها لم ينفع، نقبل بتعبنا وشقائنا، ولا نقبل بحميرك الغبيّة.

وها هو جحا ينتظر وأهل قريته قرار الوالي وقف عمل الحمير التي أفسدت القرية، وزادتهم فقراً فوق فقرهم...

Digitized by Birzeit University Library

جحا وزعامة البيت

أسكن قربَ بيت جحا، وهو رجلٌ صالحٌ مسالمٌ، وأعرف عنه الكثير، ومن عادته أنه كلّما دخل بيته رفع رأسه وبرم شاربيه إلى الأعلى، لتسمحا لصقرين جارحين الوقوف عليهما، وما ان يجلس على كرسيّه الهزّاز - علما أنه اشتراه من سوق البالة- حتى يبدأ بالصياح: أم الخير، هاتي القهوة... قم يا خير هات التّفاح... أنت يا بديعة جهزّي النّرجيلة.

فينطلق كلّ واحد منهم إلى واجبه على وجه السّرعة والإتقان.

وإذا طلبت منه زوجته زيارة أهلها، ناولها مئة شيكل، ويقول لها اشتري لأهلك هديّة، ولكن لا تتأخري.

ظلّ حجا على هذا الحال يحكم كأنه سلطان في مملكته.

ولكن، منذ أسبوعين رأيت جارنا جحا مهموماً، منفوش شعر رأسه، وقد أهدل شاربيه إلى الأسفل، يهذي مع نفسه. ناديته: يا ابو الخير، مالك، أراك حزينا.

- اتركني في حالي يا جاري، ثم أكمل سيره دون أن يزيد في كلامه.

Digitized by Birzeit University Library

اليوم مساء سمعت أم الخير تصيح وتولول، قفزت مسرعاً إلى بيت حجا، وسألت عن الخبر.

قالت زوجته: تعال يا جارنا، لقد جُن جحا وحلق شاربيه، وصار يخطب في البيت كما الرئيس في شعبه.

وعندما وصلت اليه، وجدته يضرب بقدميه الأرض، وينفث بسيجارته الى أعالي السماء، ينظر إلى النّاس باستغراب، يضرب أخماساً في أسداس، كأن الجنّ ترقص أمامه، والشياطين تتربع فوق رأسه، فقلت له: وحّد الله يا جحا، ما بك؟

قال: أنا لم أفقد عقلي، أشهد يا جاري أنّي قد تخلّيت عن زعامة البيت، فارغ الجيوب لا يستحق القيادة، ومن لا يستطيع توفير أكل أهل بيته لا يجوز له أن يعطي أوامر، من لا يستطيع أن يحمي بيته عليه بالتّخلي عن الزّعامة. ثم صاح: هيييييي يا ابني يا خير، هيييي يا بنتي بديعة، هيييي يا أم الخير، هيييي يا أهل البلد، اسمعوا جميعا، أنا رجلٌ لا أستحق الزّعامة، انا ربّ بيتٍ فاشل، أعلن أمامَكم عن انسحابي من قيادة البيت، فلا تطلبوا منّي ما لا أستطيع تقديمه، ولن أطلب منكم ما لا أستحق، والحاضر يعلم الغائب.

عدّت إلى بيتي، وأنا أتساءل: هل جنّ جحا أم صار حكيماً؟

Digitized by Birzeit University Library

جحا وعلامة النّصر

استيقظ جحا متأخراً في الصباح، فقد أطال السّهر ليلة أمس، عندما زاره جاره الذي شكا له كثيراً عن طلبات زوجته التي لم يعد يحتملها، والتي لا تتوقف في يوما، بل هي كالنّهر الجاري، ورغم وعوده لها بأنه سيفي بكل متطلباتها إذا تحسنت الظروف الاقتصادية، إلى أنها تركت البيت وعادت الى بيت أبيها، وهو يشكو الوحدة وضيق الحال.

صار يصيح في زوجته أم الخير: تأخرتْ عن العمل، هاتي الحذاء، هاتي ابريق الماء، الماء مقطوع في الحنفية، هاتي القميص. لبسه متسخا، ليس مهما (قال لزوجته)، المهم أن أصل في الوقت المحدد. ثم أطلق العنان لسيارته، والتي لم يدفع باقي أقساطها للبنك...

إشارة الشرطي تلّوح له، ومن مكبر السّيارة يقول الشرطي: وقف على يمين.

قال حجا: والله يا خواجا متأخر عن الشّغل، وسرعتي وصلت ٨٣كم في الساعة، سامحني.

– هات رخصة، هات تأمين، نظر فيهما، وقال: بكفيك مخالفة على السّرعة ٥٠٠ شيكل، دير بالك كويس على روحك.

Digitized by Birzeit University Library

- الله أكبر، هو معي ١٠٠ شيكل، حتى ادفع ٥٠٠؟ حرام عليك!

- لا خبيبي، مشان خياتك، مشان أولادك، بعدين تعمل حادث بتموت، خرام.

- الله أكبر، تخافوا على حياتي، وتقتلونا كل يوم، كيف بدك تقنعني!!!

- (شيكت)...

وصل حجا الى وزارته متأخرا، وجهه محمر كمن كان في سباق الركض، دمه يغلي كالمرجل. جاء المراسل وقال له: تفضل.

- ما هذا؟

- خصم يوم عمل من المدير بسبب التأخير.

أشعل سيجارته العربية، فامتلأ المكان بالدّخان، وصار يغنّي بصوت عال:

يا دافع خمسمية ....لا تحزن عاليومية

كلها كم سنة وشهرية... وبتفارق هالعباد

قال زميله:

اذا مالك راح خلّي عقلك معك، من أجل اولادك...

Digitized by Birzeit University Library

عاد بعد يوم أنهكه التّفكير، وسرّح خيالة وأسئلته لنفسه تتزاحم: من أين سأدفع أقساط ابني خير الجامعية؟! لا بدّ لابني خير أن يترك الجامعة، نعم، لا خيار آخر أمامي... المذياع مفتوح في سيارته والمطرب يغني:

مرفوع القامة أمشي، مرفوع الهامة أمشي،

في قلبي قصفة زيتون، وعلى كتفي نعشي،

وانا أمشي وأنا أمشي...

الشّرطي يلمحه أمامه، يعطيه إشارة بالتوقف.

- ما اسمك؟

- جحا.

- لماذا لا تضع حزام الأمان؟

- والله نسيته، ومن الهّم الذي أصاباني هذا اليوم.

- هات الرخصة... تفضل مخالفة.

- يا ابن الحلال، اليوم خالفني شرطي الاحتلال ٥٠٠ شيكل، وانت ١٥٠، حرام.

- من أجل حياتك وأولادك.

Digitized by Birzeit University Library

ضحك جحا عاليا، ورفع إشارة النّصر أمام الشّرطي بيد، والسّبابة في اليد الأخرى.

قال الشرطي: هل تعتبرني عدواً كي ترفع إشارة النّصر أمامي؟

- لا يا حبيبي، هذه هي عدد الخوازيق التي أكلتها هذا اليوم فقط...كانت خوازيقنا مستوردة، أضيف إليها خوازيقَ محلية الصّنع، والحمد لله على الصّناعات المحلّية الفاخرة...

Digitized by Birzeit University Library

هكذا قال الوالي

لبست الأرض ثوبها الأبيض، بعد وقتٍ طويلٍ من الجفاء، فرحت أسرة (أبو الخير) بهذا اللون، فهي تسمع بجبل الشّيخ الذي يزوره الأغنياء، ومن يملكون السّيارات الخاصة، فيعودون فرحين لما شاهدوه من مناظرَ جميلةٍ تعُج بعبقِ الماضي الذي اختلط بسواد الحاضر، لا باكين على تاريخٍ حزين وواقعٍ مرير.

في هذا اليوم حدث أمرٌ جلل، أربك يومه وخلط موازين عقله ليعيش تائهاً فيما حدث، لا يعرف كي يتصرف، فاهتدى أخيراً إلى أن يرسل رسالةً إلى الوالي، حاكم البلاد السّاهر على أحوالهم، ليشكو له حاله، علّه يجد عنده مراده، فكتب برقيةً جاء فيها:

سيدي الوالي، لا خير إلا خيرك، ولا سوء منك، أنت الرّجاء، وعليك بعد الله الأمل، أعلم أني أثقلت عليك في طلباتي السّابقة، ولكنّي أعلمك، أن المصائب تتوارد، كأنها أحبّتني ولا ترغب مفارقتي، ورغم هذا لم يحدث مكروه جديد يزعجك، الّا أن ابني (خير) أقترح عليّ أن يلعب في ساحة المنزل ليرقص فرحاً لقدوم الثّلج، ويغنّي للحياة الذي لا يعرف كنهها؛ فهو مازال غضاً، لا يعرف قسوتها ولا ظلمها، فالجهل أحياناً سعادة، وأتمنى أحياناً أن أكون من الجاهلين،

Digitized by Birzeit University Library

فيرتاح عقلي ويهدأ قلبي، فأغنّي مع المغنين، وأرقص مع الرّاقصين، وأطبّل مع المطبّلين، ليهدأ قلبي، بعد أن يتوقف عقلي عن التّحليل والتّمحيص والتّفكير.

رقص ابني يا سيّدي الوالي كي يوفّر الحرارة لجسمه البارد، بعد نفاذ الغاز وانقطاع الكهرباء، فأنت تعلم بمشكلتها أكثر منّا، أخذ يقفز على الثّلج، تزحلق فكُسِرت رجلُه، تجمهر الجيران حوله باكين مولولين، ثم حملوه معي إلى سيارة جارنا (سهيل).

لم يتردّد سهيل في تشغيل سيارته العمومية، رغم أنه كان ينظر إليّ من تحت نظارته السّميكة، فأنا لم أدفع له الأجرة منذ أسبوعين، فلا راتب عندي، ولا دعم يصلني، ولست بحرامي أسرق العباد، ولا شيخاً ضالاً أكتب لهم الحجابات أو أقرأ طالع الأيام في الفنجان أو من آيات القرآن، ولست سياسياً أخطب في السّاحات العامة، وعلى المنّصات المضيئة، يدي نظيفة، وملابسي مهترئة، وجيوبي ستظل فارغةً حتى أموت، وإن عرفتم أنها مُلئت بغير حقٍ فانبشوا قبري وألقوني في مكبّ النّفايات، كما رأيت ذاك على شاشات التّلفاز في البلاد (الكافرة)، علنّا (نكفر) يوماً مثلهم فنصير ذا قيمةٍ عالية...

Digitized by Birzeit University Library

حمله السّائق سيدي وسار بخوفٍ وتردد؛ لأن الطريق فيه ثلوج خفيفة، وما إن سرنا عشرات الأمتار، فإذا السّيارة تتزحلق، والله ستر، كادت أن تصطدم بعامود الكهرباء المعطل أصلاً، فرمقني بنظرةٍ قاسية، ثم أدار سيارته وعدنا أدراجنا.

وها هو ابني خير في بيتي يتألم وهو ليس بخير، بعد أن قامت الحاجة (فوزية) بصنع جبيرةٍ عربيةٍ لقدمه من الطحين الممزوج بالبيض، وقالت ليي: (اطعموا جاج خليه يرم عظامه) قلت في نفسي: لا داعي يا ابو الخير أن تأكل البيض، فلا بأس في الخبز والزيت والزعتر هي نعمة والله كبيرة، وفرتّها لابني خير، فاستخدمتها الحاجة فوزية جبيرةً له، لعله خير، ولكنّها ظلت توصيني بالتّغذية الجيدة لابني.

سيدي الوالي،

أملي بكم أن تساعدونا في فتح الشّارع، وتوفير طبيب للقرية، ودمتم صاعدين الى العلا، ولو على أكتافنا نحن ابناء الوطن، فنحن خلقنا لخدمتكم ... ودمتم بلا حرائق وكسور.

أبنكم المكلوم جحا ...البردان...المحروق بيته.... المكسور رجل ابنه...

Digitized by Birzeit University Library

وصلت الرسالة الى الوالي، الذي قرأ الرسالة، ثم ردّ عليه فكتب:

جحا، أعلمك بأن طلباتك زادت وشكواك فيها ضغينة، كما أني أحملك النّتيجة التي وصلتَ إليها، فكيف تسمح لابنك باللعب في ساحة المنزل؟ وهل ساحة المنزل فيها كل متطلبات الأمان من عشب الانجيل وأساليب حماية؟ أليس من الأفضل له أن يشترك في نادٍ رياضي مجهز بكلّ الوسائل؟ وأنت يا جحا تعلم أن عدد النوادي في بلدي يفوق عدد الحمير في دولة أخرى، وهي مسموحة لاي مواطن أن يشترك فيها مقابل مبلغ من المال لا يتعدى ال ٥٠٠ درهم شهريا ... فلماذا لم توفر لابنك بدائل عن الطاقة الكهربائية والمحروقات؟! كان بإمكانك استغلال الطاقة الشّمسية في توليد الكهرباء، وهي متوفرة في بلدي بمبالغ لا تزيد عن ال ٣٠ ألف درهم أو أقل، وكيف تحمّل الحكومة مسؤولية نقل ابنك بسيارة جارك؟ لماذا لا يوجد عندك سيارة وهي الآن متوفرة في الأسواق بالتّقسيط عن طريق البنوك بتشجيع حكومي؟ ولماذا لم تطلب طبيبا إلى منزلك للعلاج الكسر؟ وأطباء بلدي دائما في خدمة المواطن! أخيراً حكومتنا تشجّع الطبّ العربي من أجل تشجيع الناس على العمل وعدم استخدام الكيماويات في الطب،

Digitized by Birzeit University Library

فكل أجدادك يا جحا تداووا بالطبّ العربي، ولكن ماذا أقول؟ كما قال المثل: الإنسان طماعٌ وناكرٌ للجميل، ولا يعجبه العجب.

قرأ جحا الرّد، واخذ يقلّبها، علّه يفهمها، ولكنّه بدأ بترجمتها واللطم على رأسه، وكلما سأله النّاس: لماذا تلطم يا جحا؟ أجابهم: لأني لم أوفر لابني نادياً خاصاً ومدربةَ سكواش وبالية؛ حتى لا يقع ابني على الأرض... هكذا قال الوالي ...وقول الوالي حقٌ لا لَبس فيه.

Digitized by Birzeit University Library

سيّارة جحا

لم يصدق جحا أنه أصبح موظفاً عند الحكومة، فاشترى بدلةً جديدةً، وأخفى تحتها(الشّباح الممزّق)، ومعدةً شبه خاويةٍ من أيّ شيء كان لذيذا، بل كان الكثير من الخبز اليابس والشّاي الثقيل، وإن كانت الأيام تجود، فكان يظفر بقليل من أجنحة الدّجاج الصّغرة.

رقص فرحاً عندما استلم أول راتبٍ له، كيف لا، وقد ذهب إلى المصرف الذي يراه مصدر السّعادة؟!

وقف أمام الصرّاف الآلي بكلّ شموخٍ وثقة، أدخل البطاقة، فانهمرت أمامه الدراهم كأنها زخات مطر في شتاء تسقط على أرض أضناها العطش، رقص قلبه قبل عقله، مدّ يده إلى جيبه وأخرج (مغيطة) من بنطاله، ولفّ بها الدّراهم، وعاد سعيداً الى بيته.

وقف أمام البيت وصاح :

- أم الخير، مصاري، معي مصاري.

- عادي وزيادة، يا جحا، والله صرت يا جحا موظف، وزلمي مهم في البلد، خلي دار ابو اسعيد يفقعو من القهر...

Digitized by Birzeit University Library

فرحت ام الخير كثيراً، وأشرق وجهها، ثم حملت مصاغها، وانطلقت به مع زوجها إلى معرض السّيارات، وقعت عيونهما على سيارة جميلة، دفعا ما معهما دفعة أولى، بعد أن باعا المصاغ الذّهبي، الذي احضره حجا من تعبه في العمل في مقالع الحجر فيما مضى، وكتب ما تبقى من الثمّن شيكات مؤجلة، وعادا الى البيت وهما يرقصان فرحا، وكان يغني:

عيش حياتك عيش ولا تسرح عالهيش

اركب سيارا!!!! ولا تركب اكديش

عيشش ....عيش....عيش حياتك عيش

ضحك عاليا، شمخ برأسه، أخرج يده من شباك السّيارة، ثم غنّى:

سيارتي حلوة ما أحلاها،

كل البلد تتمناها.

وفي نهاية الشهر الثالث صاح جحا :

- انخرب بيتي، رجع الشيك. حضرت الشّركة، واسترجعت السّيارة...

Digitized by Birzeit University Library

جلست أم الخير تندب حظها : راحت السّيارة، رحن الأسوار، راح العُقد أبو خرزات زُرق، آآآآآآآآآآآآآآآآآآآخ، لا نفع العُقد، ولا نفعن الخرزات، ولا دار ابو إسعيّد انقهروا، العين طرقتنا، رُحن الخواتم، ويا ويلي من الّي بدو يجي. الله يخرب بيتك يا حجا مثل ما خرّبت بيتنا....

اضطرب جحا كثيراً، وصار يستمع مرةً إلى أم الخير التي تحوّلت الى بركانٍ ثائر، ومرةً إلى قلبه الذي تشتت ضرباته، وإلى صحونِ البيت الفارغة، التي يعبث بها ابنه حاتم، وأخرى الى ثلاجته الفارغة من كلّ شيء الّا من علبة كولا مملوءة بالماء، فقد اشتراها يوم احتفل بقدوم السّيارة، وتارةً ينظر إلى بدلته الجديدة...

حضر حماه كي يساعد العائلة في حلّ أزمتها، وبدأوا يبحثون في كيفية توفير طبخة العدس التي هجروها قبل عدة أشهر، بعد معاناة طويلة مع تركها... وظلت كلمات أبيها تتردد في أذنها عندما عقدت العزم على مغادرة البيت: يابا اصبري ع المرّ بلاش يجيك امرّ منّو...

وكلما وقعت عين جحا على زوجته أو ثلاجته أو ابنه قال: يا عمي، والله حمارة مهيونة أحسن من سيارة مرهونة، عالأقل بظل معك حق المونة.

Digitized by Birzeit University Library

دكانُ جحا

هرولت قوات الأمن إلى دكّان جحا، ثم اعتقلوه أمام كلّ النّاس، وسحبوه بكل قوة، ودون اية رحمة. فقال لهم: انا لست (مكورن)، ولست تاجر مخدرات، ولا حتى ليس عليّ (شيك راجع)، ولم أبع الأقصى، ولم أعقد أية صفقة تطبيع مع الاحتلال، ماذا صنعت؟

- في المركز تعرف...

وفي المركز، قال له الضابط: لمَ تفتح دكانك كلّ الوقت؟ ألم تعلم أن لكلّ صاحب حرفة وقتا محددا للفتح في ظل جائحة كورونا والتي حدّدتها الحكومة؟

أجابه: لم أخالف التعليمات، يا باشا.

- ويحك، تفتح كل الوقت، وتقول لا تخالف التعليمات؟

- يا سيادة الضابط، أفتح السّبت، لأني أبيع السّردين والحليب، والبسكوت، وهو يوم لبيع مواد التموين، وافتح الأحد لأبيع البندورة والخيار والجرجير، وهو يوم لبيع الخضراوات، أما في يوم الاثنين فأبيع المحارم والعطور والمنظّفات فهو يوم لبيع مواد التّنظيف، وكذلك باقي الأسبوع.

Digitized by Birzeit University Library

ضحك الضابط وقال، فهمنا، ولم تفتح طول الليل؟

- معاك حق، ولكنّي أفتحها لبيع الأسبرين والأكامول ولصقات الجروح، أرأيت يا سيدي الضابط، أنا ملتزم مع الحكومة وتعليماتها.

فتح الضابط فاه كمن رأى شيئاً عجباً، وقال: أنت مثال للمواطن الصّالح الملتزم.

عاد جحا إلى بيته ثم فتح دكانه بأمان، واستقبل الأهل والجيران، وعندما سألوه عن هذا التغيير المثير، قال لهم: لم تكن تعرف الحكومة أحوالكم، اليوم عرفت كيف يعيش المواطن.

ثمّ قال لهم: الله يسامح الحكومة لو وزعوا ثمن البنزين على النّاس لوفّروا مالاً كثيراً، ودعت لهم أم الخير بطول العمر والسّعادة.

Digitized by Birzeit University Library

حجا يوصي ابنَه

انتظر حجا سنواتٍ طوال كي يتبدّل الحال، ولكنّه هذه الفترة يعدّ أوقاته باليوم والسّاعة؛ فهو ينتظر لقاء ابنه خير الذي غاب عنه سنواتٍ عدّة، وعلم أن ابنه يستعدُّ إلى العودة للدّيار، فكتب له رسالةً قال فيها:

أي بني،

أعلم أنك قد شارفت على إنهاء دراستك الجامعية، فهذا أمر يبهجني، فهذه لحظاتٌ انتظرتها منذ زمنٍ بعيد، فنحن أصحاب علمٍ وثقافة، ولم نعد أصحاب البعير كما يصفنا كارهونا، فالكارهون والحاقدون لا دين لهم، وإن سبقوا الجميع إلى الصفّ الأول في الصّلاة، احزم معك ذكرياتك كي لا تنساها، فالذكريات الجميلة، هي مخزون السّعادة، والقِ كلّ ما هو قبيحٍ وراءك، فالحياةُ هي اللّحظات السّعيدة التي نعيشها، واجعل أيامك جميلة بالعطاء والنّماء والخير؛ تكن سعيداً.

أي بني،

لقد منّ الله علينا بالعلم وسخّر لنا الغرب بأن صنعوا التكنولوجيا فاستخدمناها، فلله الحمد والمنّة الذي مكننا أن تستوعب ما صنعه الآخرون، في وقت أقفلنا عقولنا وأطلقنا لكروشنا العنان، حتى أن

Digitized by Birzeit University Library

بعضنا صار أكبر من دولته حجماً وإنتاجاً، وجعل المال للفسق سلماً ومعراجاً، ليبحث فيه عن زرق له ومالاً ثجّاجاً.

فإذا عزمت العودة، فتوكل على الله، وأرسل أوراقك إلى السّفارة عبر البريد الإلكتروني، فهناك من يستقبلها ويعيدها إليك، فالسّفارة طريقُها بعيدٌ، والوصول إليها سيأكل منك يوماً، واعلم أن لا تهدر وقتك، كما لا تهدر مالك بلا فائدة.

فإذا طُلِب منك الحضور، فلا عليك، اكتب توكيلاً لمحامٍ وهو من سيقوم بكلّ ما هو مطلوب، فالمحامون وجدوا لراحتنا، لا لقلب الحقائق، وتزييف الوقائع، وإن طَلب منك أموالاً إضافية، فلا عليك، سأرسل لك مزيداً من المال، فنحن الآباء خُلقنا لخدمة أبنائنا، علّهم يحفظون هذا العطاء، ويقدّرون هذا الصنيع، وكثيرٌ منهم ينسون تضحية آبائهم بسرعة، فالجانب المظلم في قلوب الكثيرين من الأبناء هو من يسيّره؛ فيتحّكم في هواه، فيلقي دينه وعقله بعيداً، فاحذر ذلك.

أي بني،

إياك والوصول إلى السّفارة، فالدّخول إليها مضمون، ولكن الخروج منها فيه شكٌ ورأي، وفيها الكثير من أدوات الزّراعة والكيماويات التي لم نعد نهتم بها ولا نستخدمها في محلّها، فالزّراعة

Digitized by Birzeit University Library

تركناها، والصناعة أهملناها! كيف لا ونحن نشتري كل ما نحتاج من الداخل أو الخارج! فلا لبسنا من صناعتنا ولا أكلنا من زراعتنا، ولا حافظنا على ما علّمنا إياه أجدادنا!

فإن خالفت رأيي، فاذهب وأقرأ على نفسك سورة الوداع، وإن لم تجدها، ولن تجدها، فاكتب لي سفر العقوق الذي لا أطيقه في تاريخك الدنيوي. هذا رأيي وعليك الاستجابة.... وختم رسالته بكتابة جملة(أبوك الذي يحرص عليك).

استلم خير رسالة أبيه، فهم منها جزءاً ولم يفهم الأخرى، أرسل أوراقه للسّفارة، طالبوه بالحضور، أقسم أغلظ الأيمان أن لا يصلها وإن تخلّى عن حصته من الوقود الذي لم يأخذه، ثم أرسل محامياً له إليها عملاً بوصيه والده، وعاد مستبشراً إلى وطنه، ولكنّ علم أن قلم أبيه أودعه في سجنٍ بعيدٍ عن أشعة الشّمس الجميلة.

حزن عليه، وكتب لأبيه رسالة، قال فيها: صرت اليوم أعلم أن الرسائل في بلادنا مقروءة وإن أغلقت، والرأي ممنوعٌ وإن أطلق له كلّ الدعايات، والحرّية قصّت جناحاها، فلم تعد تطير في السّماء، بل صارت ترفرف على الأرض بكلّ القيود فلا تحلّق ابداً، لتقع حزينةً بين يد جلادٍ أو سجان، ألم تعلم يا أبي أن القضاء أكبر من كلّ الحسابات،

Digitized by Birzeit University Library

وأن يد الوالي طويلة، وعيونه كالشّمس ساطعة، ولكن صبراً يا أبي، ستشرق شمسنا قريباً، وسترسل أشعتها الذّهبية لكلّ من أكله زمهرير القهر والقيود، إني أراها وراء الجبال تبزغ بهدوء.

Digitized by Birzeit University Library

عمّي جحا، أنت غلطان.

جاري جحا رجلٌ كريمٌ أصيل، يحبّ فلسطين كثيراً، هواءها وماءها، ترابها وصخورها، غورها وهضبتها، جبلها وسهلها، نهرها وبحرها، مسلميها ومسيحييها، ماضيها ولكن لا يحبّ كلّ حاضرها.

وأنا أحبّه كثيراً، لا لأنه كان يضحكني حيناً، ويعلمني كثيراً فقط، بل لأنه رجلٌ منتمٍ إلى أهله ووطنه، لا يعجبه ما هو سلّبي، يكره النّفاق والكذب، وهو ليس كجحا الذي قرأنا عنه في المدارس، رغم أن هناك تشابهاً بينهما. وعندما اعتقل ابنه خير وحُكم عليه عشر سنوات، احتسب وصبر، بل فرح وقال: السّجن ما بسكّر على حدا.

استيقظ الحاج جحا هذا اليوم باكراً، وهرع إلى صلاة الصّبح ملبياً نداء التّوحيد والتكبير، فهو يواظب على صلاة الصّبح في المسجد قبل أكثر من عشرين سنة، وفي أغلب الأحيان يقرأ القرآن وينتظر شروق الشّمس حتى يصلي ركعتي صلاة الضحى... ولكنّه في هذا اليوم لم ينتظر شروق الشمس.

عاد إلى بيته ليجد زوجته خديجة في انتظاره، وقد أعدّت له إبريق الشّاي وصحناً مليئاً بزيت الزّيتون، والى جانبها رغيف خبز من الطابون، تفوح رائحته بعبق الزّمان والمكان، وبضع حبات من

Digitized by Birzeit University Library

الزّيتون، فأكلها وحمد الله على نعمته، وجهّز نفسه كي يزور ابنه خير في معتقل الاحتلال في النّقب.

ركب الحافلة من قريته متوجهاً إلى رام الله، لينطلق من هناك مع الحافلات الخاصة التي أعدّته لهم منظمة الصليب الأحمر لزيارة الأسرى في سجون الاحتلال.

وفي الطريق أخذ جحا يسرّح نظره في المستعمرات التي ملأت المكان قسوةً وخيبةً وألماً، وكلما مرّ من أمام واحدةٍ منها: تنهد وقال:

- آآآآآآآآآآآخ، وين العرب؟ وين المسلمين، الله أكبر، أكمن فلعوص أخذوا أرضنا، وشتتونا جوا وبرا، وإحنا نتفرّج!!

وقفت الحافلة، وإذا بالسّائق يقول: حاجز عسكري.

فقال جحا: يا فتاح يا عليم على هالصبح.

صعد جنديٌ صهيونيٌ غريب الشّكل، لا يدلّ وجهه على ارتباطه بهذا المكان، عيونه شديدة الزّرقة، بياضه النّاصع، طوله الفارع، لغته الغريبة، وقال بلغةٍ ركيكة: يلّا ... جميع الزلمات ينزلو من الباص.

نزل جميع الرّجال إلا جحا فقد بقي جالساً مع الأطفال والنّساء.

Digitized by Birzeit University Library

صرخ به الجندي: شو إنت مو بفهم، خمار، أنا قلت جميع الزّلمات ينزلو تحت.

فقال الحاج جحا: مزبوط يا خواجا، انت حكيت وأنا سمعت، بس أنا مش زلمي، ولا في زلام أصلاً، إزّلام ماتت أو مربوطة، والا ما كان يلّي مثلك لسّه هون بُشخر وبُنخر وما في حدا يردوا...

رفع الجندي بندقيته، وضربه على رأسه بعقبها، وصاح: شيكت يا أخو الم... سالت دماء حجا على وجهه، ثم مسحها بحطته البيضاء، فظهرت دماؤه على الحطّة كنجمةٍ مضيئةٍ في السّماء، وشتم الجندي من جديد.

أنزله مع الآخرين والدّماء تنهمر، تركوه دون علاج، رفعه الرّكاب معهم، بعد أن فتّش الجميع وصرخ بهم: بسرعة على الباص، وصلوا الى مشفى رام الله، وهناك زفر آخر أنفاسه...

استيقظت هذا الصباح باكراً، حملت مصحفي وذهبت إلى مقبرة القرية، زرت قبر الحاج جحا، وقرأت الفاتحة وبعض السّور الأخرى على روحه الطاهرة، أخبرته بقصة عمر أبو ليلى، وما قام به من فعل بطولي، فقد ثأر له بعد هذه السّنين، وقلت له: شفت يا حاج، في بلدنا مازال هناك رجال، يا عمّي جحا، أعرفت إنك غلطان؟!

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا المفقود

جاءت أم الخير (تبرطم) على زوجها:

- بعدين معك، قد الحيط والدار فاضية، لا أكل ولا كهرباء، ولا شي يسر البال.

- فش رواتب يا مرة.

- وآخرتها يا زلمة...

- وبعدين، يا مرة، في أزمة مالية، شاطّة وماطّة، وعلينا حاطّة.

- طيب ما أنت شاطر بخطاباتك للوالي، حلها.

- والله صرت أخاف يا مرة، الوظع مش مثل أول.

- يا زلمة ما إحنا ميتين ميتين، على شو خايف؟ ضاع كلّ شي، حتى شوية الكرامة مسحوها في الوحل، ما ظل شي نخاف عليه، الله يرضى عليك، خذ ورقة وقلم واكتب رسالة للمسؤول، بالكي قلبو علينا حن، من اللّي عندو قدّم إلنا ومَنْ، واشترينا شاي وبُن، وأكلنا واتغدينا، واشترينا فاكهة واتحلينا، خلينا نتحمم ونلبس، ونروح ونيجي على كل عرس.

Digitized by Birzeit University Library

أخذ جحا القلم والورقة وكتب :

عزيزي الوالي،،،

تحية الوطن الصامد فوق الجروح.

..سيدي صاحب السرايا والصروح، أكتب لك من القلب والرّوح، عسى أن تصلكم هذه الرسالة وأنتم بخير وسعادة، أما نحن فما زلنا نتنفس الأنفاس المتقطعة فاطمئنوا.

سيدي ومولاي، أنا موظف صغير، يتقاضى القليل من الدولارات، ومثلي لا يؤثر على اقتصاد البلد، ولا يغيّر فيها، ولكنّ زوجتي أم الخير ألحّت عليّ أن أكتب لكم نصيحة من أجل حلّ الأزمة التي تعيشها البلد؛ فهي تراني صاحب رؤية ثاقبة، وانا لا أعرف نفسي هل أنا مجنون أم عاقل وفصيح؟ ولكن وزارة الداخلية (ام الخير) لها حكم نافذ كما تعلمون، بيدها مفتاح الأمن والسّلام.

سيدي الوالي، إنكم تعينون الوزراء بلا وزارات، والوكلاء بلا وكالات، والمدراء بلا مديريات، والحواشي بلا حاشيات، والشّعب هيهات هيهات أن يجد الأقوات!

سيدي، لا داعي للحواشي، حولوهم يزرعوا أرضا، أو يطعموا المواشي!...؟

Digitized by Birzeit University Library

سيدي، يذهب الوزير ويتبعه راتبه إلى السّرير، والمواطن صار فقيرا، فقد كل شيء حتى أصبح لا يجد القمح ولا الشعير، ووزير آخر يذهب، وتبقى سيارته الفارهة بين يديه.

سيدي، مئات من الوزراء والبرلمانيين ذهبوا وبقيت رواتبهم، ولا أدري هل صاروا فقراء أم لم يجدوا عملاً بعد تركهم الحكومة؟! أم أن الوزير قدر أبدي، يأكل ويشرب من مكتسبات الشّعب ومقدرات الأمة...؟؟؟!

سيدي الوالي،

كلّ أفراد الشّعب يريدون أن يصبحوا وزراء أو وكلاء، ليحصلوا على لقب المواطن الذي يعيش حياةً كريمة، ويتخلى بامتيازات الوطن السّليمة.

سيدي، لا أريد أن أسجن، فعندي الكثير من الاقتراحات، والكثير من الأولاد وأم الخير كباقي الطيبات، تدعو لك بالخير والسّلامة، من اليوم حتى يوم القيامة.

ودمتم بصحة دائمة، ابن الوطن المحافظ على الكرامة.

جحا...

Digitized by Birzeit University Library

مرّت الأيام على رسالة جحا، وأم الخير تصحو كل صباح وهي تصرخ: وينك يا أبو الخير؟ متى ترجع؟!

والنّاس يواسونها ويقولون لها: لا تفقدي الأمل، سيعود جحا يوما ما.

Digitized by Birzeit University Library

جحا والكورونا

دخل جحا إلى دكان أبو سند، واشترى مجموعةً من الأغراض.

كم السّعر يا ابو سند؟

- ١٥٠ شيكل.

- ولّ، شو الدّعوة؟

- هيك السّعر، ادفع وخذ اغراضك.

- فش معي غير ١٠٠، ثم عطس عطسةً عالية.

قفز أبو سند بعيداً، ثم صعد فوق طاولة البقالة، فتناثرت النّقود المعدنية، وهرس برجله علبة الحلوى التي يحضّرها إلى جارهم سهيل، وصاح:

- أسوق عليك الله، حط المية شيكل واطلع، واذا بدك المية خذها، أنا وراي قواريط ازغار بدّي أربيهم، عليّ دين بدّي أسدّوه...

دهش جحا من ردة فعل (أبو سند) ثم دفع المئة وغادر مسرعاً، ثم عاد الى بيته وهو يتمتم.

قالت زوجته: اسم الله عليك، مالك بتحكي مع حالك.

-والله يا أم الخير، مش عارف شو صاير في هالدنيا؟!

Digitized by Birzeit University Library

-خير شو في؟

- ابو سند صاير رجل كريم، سامحني بخمسين شيكل، بس كان امعصّب.

- خير شو عمل؟

- بعد ما عطست، زعل وطردني، فرحت على القهوة أشرب كاسة شاي، قعدت اشوي، قحيت، كل إلي في القهوة هربوا، ليش يا أم الخير بصير معي هيك، مش عارف!

-على شان الكورونا...مهو انت داير مع الغنمات، مش عارف شو صار في الدنيا.

- شو دخل المعكرونة في الموضوع؟

-ولك الكورونا مرض، مش طبيخ، اسمع الاخبار بتعرف شو صار.

جلس جحا أمام التلفاز يقلّب محطاته، واحدةً بعد الأخرى حتى تعرّف على المرض.

خرج في اليوم التالي وصار يصيح: يا ناس، كورونا مرض صغير وبروح بعد كم يوم او بعد كم شهر، بس شو نعمل في الأمراض إلّي منتشرة بينا من سنين، واحنا امقرقطين فيها مثل الجرادة ع الجحش...

Digitized by Birzeit University Library

يا ناس، مين أهون الكورونا والا الغدر؟ يا عالم، مين أخف الكورونا والا الكذب والنّفاق؟

وينتى بدها تخلص هاي الامراض بينا؟

صار بعض النّاس يتهامسون: حجا انجن، مهوه اخرخش من زمان، والا كنّو انصاب بالكورونا، ابعدوا عنه أحسن إلكم...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا مع الوزير

لم يعرف النّاس من قبل عن جحا انه يضطرب كثيراً، فعقله راجح، ولباسه بسيط، وعمله عاديّ أيضا، منتمٍ إلى الأرض، متواضعٌ وهادئ، لا يحبّ الكميرات ولا الأضواء، أما هذا اليوم، فقد رآه النّاس بشكل مختلف، فهو يلبس بدلةً جميلة- على غير عادته- رغم أنها أكبر من حجمه، ورغم ذلك فهو مسرورٌ جداً. وعندما سأله جاره عن سبب هذا اللباس الجميل أخبره أنه اليوم سيذهب إلى القاعة الكبيرة حيث سيستقبل وزير الزّراعة هو وكل المزارعين الكادحين.

وصل وزير الزّراعة إلى موقع الحفل، رحّب بكلّ الموجودين، وحثّهم في كلمته على الاستمرار في الصمود أمام إهمال النّاس للزّراعة، والوعي لما يحاك للوطن من مكائد، وقال جملته الشهيرة: نموت شامخين فوق أرضنا، رغم أنف الحاقدين.

بعد الاحتفال، طلب جحا من الوزير أن يلتقط معه صورة...

ذهب سريعاً وطبع الصورة في معمل التصوير، وذهب إلى أم الخير، وصاح من باب الدار:

Digitized by Birzeit University Library

- أم الخير، جيت، جيت.

- الحمد لله على سلامتك، شو هاظ الي جايبو معاك.

رفع نبرة صوته، واستند على اريكة مهترئة قد تبرّع له بها جاره العقيد، وقال:

- صورتي مع الوزير.

- نيالك يا جحا ما حدا قدّك.

علّق جحا صورته على جدار البيت الداخلي، وأخذ يتأملها جيدا.

خلد إلى نومه وهو يتحدّث عن الوزير والاجتماع.

وفي الصّباح، رفض أن يذهب الى الأرض، لأنه سيذهب من جديدٍ إلى متابعة الوزير ليحضر اجتماعاً آخر، وربما يحظى بصورةٍ أجمل من الأولى.

ظلّ جحا يركض خلف الوزير من اجتماعٍ الى آخر، حتى جاءت جرافاتٌ زرقاءُ غريبةٌ لتقطع أشجارَ زيتونه الخضراء، نظر الى حقله بحسرة، فلم ير الا جرافات سوداً تنعق فوق حقله، ولم يرى الا بعض الفقراء يرمونها بالحجارة، بكى ،صرخ، لطم، وبحث هنا وهناك، فلم يجد وزيراً ولا غفيراً؛ زادت حسرته، وعاد بعد يومٍ طويلٍ من المواجهة الى البيت.

Digitized by Birzeit University Library

أسرع جحا إلى الصورة المعلقة علة جدار المنزل تناولها، والقى بها تحت عجلات الجرّافة، واحتضن جذع زيتونة، وصاح: الصور ما نفعتني، والبدلة كبيرة عليّ، والجرّافة هدمت حلمي، مات حلمي القصير خلف أبواب الوزير...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

نقّال جحا

عاد حجا الى بيته بعد سهرةٍ مع رجالات الحارة غضبان، يغلي كتنورٍ امتلأ بالحطب وقد أُشعِل منذ فترةٍ قريبة، مدّد جسمه المنهك على فرشةٍ رثةٍ قديمة، لا تفارقها رائحةُ العفونة والعطب، وأخذ ينفث دخان سيجارته العربية كأنّها فوهةُ بركان، وصار يسرّح بصره في سقف الغرفة يمنة ويسرة، دخلت عليه زوجته خديجة تحمل كأس شاي أسود ثقيل، تكاد أصابعها تلتصق بها.

خديجة: مالك يا زلمي؟ فكرك مشغول!

جحا: ابعدي عنّي يا مرة، مش طايق حالي.

– خير يا ستار... طمنّي شو في؟

– يا بنت الحلال، كل النّاس عندهم بلفونات وانا ما عندي!! والله الحياة بتزهق.

– يا رجل إحنا لسّة متزوجين من قريب، وان شاء الله كمان سنة نشتري سيارة ونبني دار، وبلفون جديد ونقهر الحسّاد.

لم تعجبه آراء خديجة ولا مشروعاتها، فقام من صباح اليوم التالي مضطرباً، ونادى على خديجة بعصبية. وحلف عيها بالطلاق ثلاثاً، أن لا

Digitized by Birzeit University Library

تصنع أيّ طعامٍ في البيت لمدة شهر كاملٍ سوى العدس، ثم خرج راكباً حماره؛ ليعمل في بستان جاره في الحراثة وبناء الجدران الحجرية.

أكلت العائلة عدساً لمدة شهر كامل، كادوا أن يصابوا بالجنون، وكلما طلب ابنهم خير أن يطبخوا دجاجة مع شيء من المرق، صاح فيه أبوه: والعدس مالو؟

وعندما تتدخل أمه في الموضوع كان يطمئنها أن الآتي جميلٌ ومفرح.

وفي نهاية الشهر أخذ جحا راتبه البسيط من جاره، وطلب من زوجته أن تحضر له ما ادّخرته من مال، ثم استحم، حمل ماله وركب سيارة الأجرة وذهب إلى المدينة.

وفي السّيارة سأله السائق:

- خير يا جحا بشوفك اليوم رايح على المدينة!

- رح اتشوفني في العودة شخص آخر...

هرع جحا بشوق ولهفة إلى محل الهواتف، وطلب من صاحب المحل جهازاً حديثاً، وآخر موضة، وعاد إلى بيته مستبشراً فرحاً....

وفي صباح اليوم الثّاني ذهب إلى الحقل وأخذ يصوّر الصّخور والشّجر والمحراث والفأس... وصل إلى البيت وأخذ يراجع الصور مع زوجته خديجة.

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

وقال: شوفي الصور، ما أجملها! سلفي والحمار خلفي.

خديجة: وين أنت يا رجل؟

- أنا يا بنت الحلال اللّي قدّام، واللّي وراي هو الحمار.

- ضحكت وقالت لا والله، إنت منور أكثر من الحمار.

قال في نفسه: اللّي بجوع وبشتري بلفون، أكيد هو أحسن من الحمار، بس بطلنا نفرّق بين الحمير... وظل يفكر لماذا وصفته زوجته بأنه أجمل من الحمار؟ الأني اشتريت النّقال على حساب سوء الحال؟؟!!...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا والهندسة

لم يكد جحا يصدق نفسه؛ لقد استلم كتاب تعينه مهندساً في البلدية، وأصبح مسؤولاً عن ترخيص البيوت في المدينة، ولم يكن فرحه مقصوراً على ما سيجنيه من مالٍ فقط، بل لأنه كان يرى أخطاءً جسيمة تقوم بها البلدية، وخاصة في السّماح للبناء قرب الشارع؛ مما أدى الى حدوث أزمة مرورية خانقة في شوارع المدينة كلها.

قدم له السّيد سامي بيك معاملة بناء بيت مكون من عدة طوابق، وعندما راجعها المهندس جحا، أخذ قلمه الأحمر وكتب عليها: مرفوض لقربها من الشارع العام.

استدعاه رئيس البلدية أبو كريم، وبعد أن شرب معه فنجاناً من القهوة، وتجاذبا أطراف الحديث، قال له:

- لقد لطب مني أحد الأصدقاء الكبار في البلد أن أرشّح له مهندساً، ليشرف على بناء عماراته في المدينة، وقد رشحتك للعمل معه، فأنت شاب مجيد ومجتهد.

- جحا: وهل هذا يتعارض مع عملي في البلدية؟؟

-أبو كريم: نحن من يضع القوانين، ولا تضع نفسها.

Digitized by Birzeit University Library

- كم أنت عظيم يا أبو كريم، فأنا بحاجة إلى التّقدم والصعود، وأنت تعرف حال والدي.

- أعرف حاله جيدا، فقير ومعدم، والبركة بك، والفرصة أمامك، سنذهب إليه يوم الجمعة كي توقع العقد، وضحك، ولا تنس أن كل هذا سيكون بعد العشاء في مطعم سيسو الشهير.

عاد جحا إلى بيته والفرحة على وجهه، وأخبر والده بفرصته وعمله الجديدين، والذي سيفتح عليه الدنيا على مصراعيها، ليتركوا الفقر تاريخاً منسياً.

ذهب المهندس جحا مع رئيس البلدية إلى مطعم سيسو ليجدوا جناحاً خاصاً قد حُجز لهم، لم يصدق ما شاهده من أصناف الطعام، إنه لم يعتد على ذلك، وظنّ نفسه أن ملك من الملوك يزهو بين رعيته... التقي بابي كريم وسهرا حتى الصباح، وبنيت العمارة...

بنيت العمارة وضاق الشارع، وشتم النّاسُ من أشرف على تصميمه.

علم أبوه أن ابنه قد فعل ما فعل، قبض بقميصه ابنه وقال له: عشنا بشرف، فدعنا نموت بشرف لا بالمال، الوطن غال بدو رجال... بكى جحا بحرقة، وعندما عاد الى البلدية قدّم استقالته وغادر.

Digitized by Birzeit University Library

وقال للمستغربين: إبليس رحل وترك لنا خلفاءه، ولا أريد أن أكون خليفةً لإبليس...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا يوزّع الحلوى

أسرع جحا إلى المسجد، فوصل إليه باكياً رثّ الثياب، وما إن وصل حتى صاح وناح، وشق قميصه أمام الناس، ولطم كثيراً على وجهه، حتى احمّر كثيراً، كما زهرة الجُلّنار، ثم أغمي عليه.

بدأ كثيرٌ من الحاضرين يخفّفون من روعته وحسرته، فقال له جاره سهيل :

- لا تبك يا جحا فالأعمار كلّها بيد الله، وهذه هي الدنيا.

قال جحا والدموع تملأ عينيه: لقد فاجأه الموت يا أخي سهيل، مات قبل وقته.

-الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، اصبر.

- لا اعتراض على حكم الله، ولكن كنت أتمنى أن يعيش سنة أو سنتين أخريين.

دعا إمام المسجد الناس الى صلاة الجنازة على حمدان، فجأة، صاح جحا: والله لا يؤم الصلاة غيري. وتحت إصرار جحا وبكائه وصياحه وندبه، سمح له إمام المسجد بأن يؤم الصلاة...

Digitized by Birzeit University Library

وقف جحا إماما، فكبّر بصوت متهدّج حزين. فكبّر المصلون وراءه وكانت قلوب الجميع منفطرة، عندما رأوا حجا والحزن والحسرة قد كلّلته، وبكت عيون بعضهم، واحمرّت عيون آخرين...

ودعا جحا ربه قائلا :

يا ربي أنك تعلم أن زوج أمي حرامي، فقد سرق مالي ومال إخوتي وأخواتي، وأعطاه لأبنائه، فأعد الينا مالنا بكل يسر وسهولة. اللّهم إنك تعلم أن حمدان عذّب حماري وأنهكه، فعذّبه كما فعل بحماري، واحشره مع زمرة الحمير.

ربي، إنك تعلم أن حمدان كان مرابياً، فقطّعه أربا إربا. اللّهم، أنك تعلم أنه كان يأكل اللحم ويرمي لنا العظم كالقطط، فاحشر عظمة في حلقه لا يستطيع أن يتكلم بعدها أبدا.

ربي، إنك تعلم أنني كنت أريد أن أنتقم منه، ولم أفعل فسامحني، فأنا عبد ضعيفٌ فقير، فانتقم منه بدلاً منّي، ثم سلّم.

وفتح بيت عزاء لحمدان أربعة أيام متتاليات، يقدّم فيها الحلوى بدلاً من القهوة المرة.. دون أن يعلم المعزّون أن هذه القهوة كانت فرحاً لموت لحمدان، لا حزناً عليه.

Digitized by Birzeit University Library

جحا أصبح معلماً

أنهى حجا تعليمه في إحدى الجامعات (العريقة) تقدّم إلى وظيفة معلم، دعا الله أن يوفّقه بأن تختاره وزارة التربية والتعليم معلماً في إحدى مدارسها...

نعم، لقد رنّ جواله، وأخبره المتحدّث بأنه أصبح معلما في إحدى القرى، فرح وصاح شوقاً وسروراً، لم يعرف جحا كيف سينام؟! لقد تحول من طالب يطلب مصروفه كلّ صباح من والده كي يناوله بعض (الشيكلات)، إلى معلمٍ يلبس القميص الأبيض وربطة العنق الحمراء- بحسب الموضة الجديدة - حمل حقيبته الصغيرة، لا ليضع فيها - هذه المرّة - كتباً جديدةً كي يقرأها، بل ليضع فيها نظارته السّوداء وبعض المحارم المعطّرة، لتتناسب ووجهه الكبير، وليصول ويجول بها أمام زملائه المعلمين وطلاب المدرسة المعدومين.

وما أن مضت بضع أيام إلا وقد ضرب جحا أحد طلاب الصّف الثّامن الأساسي، ويلقيه أرضا كما في حلبة المصارعة، نعم، لقد صرعه وأنزل من فمه الدّماء...

Digitized by Birzeit University Library

عاد إلى أمه منتصراً شامخاً، وقال بكلٍ زهو وكبرياء: نعم، لقد سمع الله دعاءك يا والدتي العزيزة، لقد (قواني) الله على أعدائي، لقد ضربت ابن الحرام، وطرحته أرضاً (ورفشت) في بطنه ولعنت أمه وأباه، فهو طالب مشاكسٌ ملعون...

وعندما سألته أمه عما فعله هذا الطالب أجاب بصراحة وعصبية: لقد تحدّث مع زميله في الصّف أثناء وجودي، وهذا استخفاف بي أمام طلابي، وكان له جزاء جريمته، ثم ضحك حجا بصوت عال وقال: طلاب الصف صاروا يرجفون خوفاً كأنهم في وسط الثّلج بلا غطاء.

- عشت يا حجا، والله سنسبق اليابان، إن سرنا بهذا النهج السليم!!(قالت أمه).

فكرّ بقول أمه كثيراً، وتأمل فعل زملائه في المدّرسة ثم بكى...

Digitized by Birzeit University Library

في بيت جحا حريقٌ

أصابت بيت جحا مصيبة كبيرة، فلم يعرف كيف يحلّها!...

اقترح عليه الجيران أن يبلغ الوالي بمشكلته، وألحّوا عليه بذلك، وافقهم الرأي، وأرسل الى الوالي رسالةً يخبره بما حدث، فأمسك قلمه وكتب:

عزيزي الوالي،

تحية الشّتاء الدافئ،،،

أرسل لك برقيتي هذه وأنا في أحسنِ حالٍ وأفضلِ صورة.

جاءت موجة البرد إلينا الأخيرة ونحن على أتمّ استعداد لاستقبالها بكلِ حبٍ وعزيمة، وقبل أن يبدأ قلبك بالخفقان، أحبّ أن أطمئنك وأثلج صدرك لا بيتك، أطمئنك فأقول:

عندما أبرقت السماء وزمجر الرّعد، انقطع التّيار الكهربائي بشكل كامل عن حيّنا، فعشنا في ظلامٍ دامس، فخاف ابني حاتم من هذا الظلام، فقد حدّثته جدّته – سامحها الله- قبل أيامٍ عن (أبو رجل مسلوخة) فخاف من قصتها، وصار يخاف من الظلام بشكلٍ كبير، ولكنّي قلت له: لا تخف من الخيال، ولا من أبو رجل مسلوخة، بل

Digitized by Birzeit University Library

خَف من (أبو رجل) ليست مسلوخة، ومن يكتب في الظّلام الى وليّه صاحب السّوط الطويل، وخَفْ من ظلام الواقع لا واقع الظلام، ومن الجلاد الباغي.

قامت زوجتي (أم الخير) - حفظها الله تعالى - بإشعال الشّمعات التي كنّا قد وفرناها لهذه الظروف المتوقعة، وبدأ ابني الصغير حاتم (ينطنط) في المنزل كي يوفر الدفء لنفسه، فوقعت شمعة على البساط القديم، مما أشعل النيران فيه، وربما أن خيوطه البالية والتي تبدو كعيدان الحطب الجافة ساعدت على سرعة انتشار النيران والتي أتت على المنزل كلّه.

قال صغيري بكل بساطة وعفوية: الحمد لله فقد عمّت الحرارة كل أرجاء المنزل، مما جعلنا نشعر بالحرارة ثم السّعادة.

فلا تهتم سيدي الوالي، فلم يحترق في المنزل سوى البساط الذي اشتريناه من سوق الجمعة، وسوق الجمعة بضاعته رخيصة، فهو للفقراء أمثالنا، واحترقت بعض الأغراض الأخرى، وقطتنا الصغيرة، وعزاؤها أنها ماتت دافئة، فكثير من البشر يموتون برداً

إن لم يموتوا قهراً.

Digitized by Birzeit University Library

والآن أعذرني سيدي، لأني أريد أن أساعد أم الخير في إزالة ما تبقى من سواد في المنزل، وبيّض الله وجهك.

وانتظرني في برقية جديدة... ابنكم الشاكر خيرَكم ...

جحا

علم الجيران برسالة جحا ومضمونها، فسألوه: لم كتبت هذا النّص للوالي؟

أجابهم: هو الوالي، السّاهر على راحتنا وسلامتنا، ويجب أن يعلم بخفايا أمور العباد والبلاد، وإن أخفيناها عنه فقد يحسبها علينا، وقد نُتهم بتصنيع أسلحةٍ قد نستخدمها ضد النّظام، لذلك طاعته واجبة، والدّعاء له فرض، والحزن لمرضة سُنّة، له السّعادةُ والسّلامة، وعلينا الصبرُ والدّعاءُ له بطولِ العمر...

Digitized by Birzeit University Library

الشّرطة وجحا

لم يكن يُعرف جحا إلا رجل بسيط في عيون الآخرين، فهو لا يملك وظيفةً ولا يلبس (بدّلة) جميلة، ولم يعلم أن النّاس تسأل به، أو تذكره في حديث فيما بينها، وهو الرّجل البسيط الذي يحرث أرضه، وليس له منصبٌ أو جاه، لا يملك سيارةً أو عمارةً، ولا حتى بيتاً جميلاً كباقي بيوت القرية، والتي صارت تضاهي بيوت المدينة، في ذلك اليوم ظنّ ولو للحظة أنه رجل مهم، ولو للحظة، عندما عاد مساء، فهبّ عليه أولاد الحارة مقبلين.

-هي يا جحا، الشرطة بتدور عليك، هيهم صاروا باب الدار.

قفز عن كرسيه المهترئة، وذهب إليهم.

-خير، شو في؟

- إنت جحا؟

- اه، أنا جحا.

- خذ هاي الورقة، انت مطلوب للمحكمة بعد أسبوع، ثم غادروا.

عاد إلى بيته متمتماً.

Digitized by Birzeit University Library

- خير يا جحا؟ قالت زوجته.

- من وين الخير بدو يجي؟ الشّرطة طلبتني للمحكمة بعد أسبوع، شو بدّي أسوّي يا ربي؟ وصار يطوف في ساحة الدار ويقول: ولّ يا أبو أحمد، مش صابر علي أدبر ١٠٠ ليرة، مظلش عند النّاس خير، المصيبة انو أسمي أبو الخير.

- شو بدك تعمل؟

- بدبّرها.

صار جحا يركب حماره صباحاً، ويذهب إلى أرضه التي تقع قرب عين الماء، يزرع بعض الخضراوات، ويسقيها من قناة الماء التي تصل إليها عندما يأتيه الدور في السّقاية، ويدعو ربه:

يا ربي هالبندورات يكبرن ويثمرن، وأسدّ دينتك يا أبو أحمد.

ثم يعود عصراً متعباً، يجلس قليلاً مع عائلته ويغفو سريعاً.

وعندما زاره أبو أحمد، قال له:

-أنا صبرت عليك كثير، والمية ليرة بدّي إياهم، أنا مش فاتح دكانتي شؤون اجتماعية، ولا سندكة ولا صدقة عن روحي قبل ما أموت.

- بس يثمرن البندورات، ببيعهن وبسدّ دينك.

Digitized by Birzeit University Library

- على كل حال، أنا رفعت قضية في المحكمة، وأنا بقول خلينا نتفاهم أحسن من الفظايح والشّرطة والحكومة.

- فش معي، بقلك فش معي، يعني أبيع ابني خير وأسدّك والا أصير حرامي وأسدّك، يا ابن الحلال لا أنا موظف ولا أنا ابن مسؤول، ولا حتى بقرب لواحد من المهمين في البلد، بدك تصبر عليّ شوي.

نهض أبو أحمد البقال، وقال له: إنت حرّ ذنبك على جنبك.

- مالك فزّيت، اشرب الشاي، وبتتيسّر.

- بدش اتسمّم زفت، بدي مصاريي...

جاء موعد المحكمة، ولكن جحا لم يذهب إليها. فأصدر القاضي - غيابيا- أمراً بحبسه، وأصبح مطارداً للحكومة، حيث يبقى مختبئاً في أرضه حتى بعد غروب الشمس. وعندما تأتي الشرطة وتسأل عنه زوجته، تخبرهم بأنه ما زال خارج البيت، (والغايب حجته معاه).

وبعد أسبوعين من مطاردة الشّرطة لجحا، امسكوا به مختبئاً في الطابون بعد أن أخبرهم ذلك الطفل الصغير الذي كان يلعب قربه عن مكانه، ووضعوه معهم في سيارة الشّرطة وعندما ضحك في السيارة: سأله الشرطي عن سبب ضحكه، أجابهم: أنه ولأول مرة في حياته يشعر بأنه مهم، فها هو يجلس بقرب الحكومة.

Digitized by Birzeit University Library

وقف أمام القاضي منهكاً.

سأله القاضي: شو يا جحا بدك تهرب منا؟ أسبوعين واحنا انطارد وراك.

-والله يا سيدي القاضي إنكم غلطانين.

-شو بتقول، مجنون انت؟

- إسبوعين الحكومة بطاردوا ورا جحا على مية ليرة، ثلاثة شرطة، وسيارة جديدة، ومطاردة وتعب وبنزين وغلبة، ومصاريف كلّ يوم أكثر من مية ليرة، لو دفعتوهن من مال الحكومة كان وفّرتوا على الدولة أكثر من ٩٠٠ ليرة على الأقل... مين المجنون أنا ولا الحكومة؟!... أقلّك، اسجنّي خلّي الشّرطة اتوفّر مصاري ويبنولهم مدرسة، وإلا أقلك، خليهم يزفتوا الشارع إلّي في حارتنا، بلاش سيارة الشرطة تخرب لمن تيجي تعتقل جحا، وخلّي أبو احمد يهدا بالو، ويسْتَرّ خاطرو، وينام ليله الطويل، وخلّيني أنام في السّجن، وخلي البندروات ينشفن، الله لا يردّني.

Digitized by Birzeit University Library

وفي اليوم التالي علم أبو أحمد بأن جحا وقع في قبضة الشرطة، وعلم أن زوجته ام الخير صارت تجوح وتنوح، فذهب إلى المحكمة وأسقط حقه عن جحا، وقال له: اقلّك، روّح عدارك، واسقي بندوراتك، الصبر على المفلس حسنة، وقت ما اتسدّ سدّ، والله يكون بعونّا كلّنا...

Digitized by Birzeit University Library

جحا والفيسبوك

ينتقل جحا من غرفةٍ الى غرفةٍ .... يفتح جهازه النّقال ثم يلقيه .....، ويبدأ يحوم في البيت كطائرة الهليكوبتر، وينفخ بقوة...ثم يفتح الفيسبوك مرات ومرات ...وينفخ بقوة .. ثم يغلق الجهاز .....تسأله زوجته: شو مالك يا زلمة نفخاتك بتنزل الطبخة؟

- والله يا مره من هالافلاس اللّي بشوفوا عند النّاس؟!

- شو الإفلاس يا زلمة ؟ والله النّاس امزنكلين، حتى أبو ريالة صار عندو سيارة حمرا.

- شو بدي أقلك يا أم الخير، ما أنتي ابتعرفيش كوعك من بوعك.

-الله يسامحك يا جحا، مش أنا خلصت محو أميّة، هسا شايفني أنا بفهمش؟

-يا مره أنا بقول أفلسوا في عقولهم وثقافتهم، مش جيوبهم ! شوفي على التلفون، شو بكتبوا...

ابو محمود حاطط صورته على الزيتونة، وهووو بعد ما جدّها باع كل الأرض.

Digitized by Birzeit University Library

أبو ساجي بقول: ابني اتخرج من الروضة، عقبال الجامعة.،ويخلق الله مالا تعلمون.

ابو عبود كاتب: انا في تركيا، والمصريات إلّي راح يشم فيهن الهوا اداينهن منّي قبل شهر.

حتى أم صافي طابخة شوية كرشات ومصورتهن، ويا ريتها تعرف تطبخ.

- ولا يا زلمي بتفكرهن امعدلات زيّي، وهيّ كل من نفخت طبخت.

- لا والله ماهن زيّك، كلكن في الهوا سوا.

- الله يسامحك يا ابو الخير، أنا بعرفش أطبخ؟

- هههه، انسيتي لمن كحفتي الكوسيات وبعطيهين كلّهن، والمصيبة انك صورتيهن بعد ما قلبتيهن، ونزلت صورهن على الفيس بوك تبعك.. مثلك مثل هالهبايل...

- الله يسامحك، يعني شو بدّي انزّل على الفيس؟ ...أغاني وطنية! الوطن ضاع! منشورات سياسية؟ كل شي مراقب! ما في شي نتفشش فيه غير الطبخ والنفخ...؟!

Digitized by Birzeit University Library

- خليك في هبلك زي هبل هالناس، يا حرمه، مش كل شي بتنزل عالفيس، في شغلات عيب الواحد ينزلها ،لازم نحترم خصوصيات النّاس ومشاعرهم.

ولا اقلك. بديش أحكي ولا أشكي ، خليني أوقد شوية نار لقواريطك الي ماتوا من الصقعة، امليح الّي الكهربا قاطعة ..خليك تقومي عن الفيس.. وتهتمي بولادك...

يا زلمة والله الفيس مليح وابن حلال، بخلي الواحد يتسلاا، بكفيك بحكي مع خواتك، وخالاتك وعماتك ومش عاجبك.

أقلك، والله يا مره .... الفيس كشف كل أهبل وتيس، وأبعد الخلان وأيقظ الشيطان، وخرب النسوان، والله المستعان...

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جحا والعزاء

عاد جحا من السّفر إلى مدينته، أخبرته زوجته بموت شقيق جارهم. فقال لها: والله انت يا أم الخير، ما فيك خير غير اسمك، مثل البومة، (ما عمرك جبتي خبر يسرّ الخاطر).

ثم صار يبكي ويقول: الله يرحمك يا أبو غالب، والله كنت رجل طيب، الله يصبرك يا جارنا يا أبو طالب، وارتفع نحيبه عاليا. وبالكاد استطاعت زوجته خديجة أن تهدّأ من روعته، وقالت: اهدأ، أنت ما عرفت باقي القصة.!!!

— خير يا ستّار؟!! شو في؟ وقعتي قلبي.

- أبو طالب، لما مات أخوه كان عرس ابنه طالب.

- يا مستورة فهميني، الكمبيوتر تعطّل عندي.

- أخفى أبو طالب خبر موت أخيه، وزوّج ابنه في نفس يوم وفاة أخيه، وبعد انتهاء العرس، أعلن خبر وفاة أخوه، وفتح بيت العزاء...وهذا هو اليوم الثالث.

- صار لازم عليّ أن أقوم بالواجب.

Digitized by Birzeit University Library

ذهب إلى بيت أبو طالب، وفي ساحة الدار صاح جحا وناح بصوت عال: العمر إلك يا أخي أبو طالب.

نزل ابو طالب وألقى رأسه في حضنه يبكي ويترحم على أخيه المتوفى.

جلس مطأطأ رأسه، شاحبا وجه. وعندما قدّموا له القهوة السّادة، ضحك جحا وقال: يعني من لا يحضر العرس بتروح عليه يا أبو غالب.... هات المنسف البلدي والكنافة النابلسية، وبعدين نشرب القهوة السّادة المُرّة.

Digitized by Birzeit University Library

شهادات جحا

عاد جحا إلى بيته مسروراً والفرحة باديةٌ على وجهه، فقالت له زوجته:

شو شايفك إمصهلل اليوم ولابس ومِطقم!!!

-والله يا ام الخير اليوم اشتريت قميص من عند التنزيلات أبو الثلاثين شيكل، وشخّصت فيه مثل ما انتي شايفه، ورحت عند الوزير واستلمت منو كتاب شكر.

-يعني إشي مهم هاظا الكتاب؟

-وإلا يا حُرمي! هاظا الوزير..... وقال في نفسه: شو بعرفها هذي بنت أبو السّكن في كتب الشكر.

- طيب قديش بسوا الكتاب... يعني كم شيكل؟

تلعثم، وجفّ حلقه، ولم يدر ما يقول.

- معنوي يا حرمة، هذا كتاب أثرو معنوي، افهمتي؟...

- لأ ما افهمت، يعني شو أقول لجارتنا إم زيد مرت اللّحام؟ جوزي روّح شهادة شكر من الوزير. وشو أحكيلها لمن اتقُلّي جوزها

Digitized by Birzeit University Library

روّح إلها ولقوريطها نص خاروف يتعشوا عليه؟؟ كشل عليك وعلى شهادتك، بالك بتسوا شهادتك كيلو لحمة عجل إمجمّد؟؟؟؟!!!!

-حلّي عنّي يا مرة.... العلم أهم من الأكل والشرب والمصاري.

-يعني اولادك لمن يجوعوا، أعطيهم شهاداتك وإلا كتاب الشكر إلي من الوزير؟!!! ها !!! قلي؟ قديش بسوين شهاداتك إلي إمليات الغرفة؟ قديش بسوين صورك مع الوزير؟

-ها..... ها..... ها....

-أقلك يا زلمي ظُب شهادتك، وارمي كرافتك، وروح اشتغل سياسي وإلا حرامي زي غيرك أحسن إلك وإلنا... بالكي الناس صاروا يحترموك ويحترمونا، وبالكي اشترينا رطل لحمة طازة وزرنا تركيا، وركبنا سيارة بتظوي في النّهار قبل الليل...

سمعها جحا وكتم غيظه قبل ألمه، وأخذ يفكّر في قولها وقسوته، وفي حاله وحال الأمة، ثم حمل كتاباً جديداً يقرأه.

Digitized by Birzeit University Library

هتاف جحا

تعثر جحا بلافتةٍ كُتبت بخطٍ جميلٍ وكبير: كلنا معك سيادة الرئيس، باني البلد وحامي الوطن، رمقها وانطلق... وأثناء سيره، نادى عليه صاحب البقّالة، وقال له:

أريد أن أخاطب رئيس الوزراء يا جحا؛ ليرحمني من الضرائب، فماذا أكتب؟ والكل يعرف عنك أنك صاحب رأي مستنير، وعلم كبير.

قال له حجا:

اكتب له في مقدّمة كتابك، وعلى رأس الصفحة الأولى، دولة رئيس الوزراء حفظك الله للوطن، وحفظ الوطن من كل سوء، اكتب له آيات الشّكر والمدح والثناء، اكتب له عن إنجازاته الكبيرة، من انتاج أكبر حبة فلافل حتى صنع أكبر سدر منسف، وجولاته الغزيرة بين حقول الزيتون، التي اقتحمتها الثعابين الملونة، ذكره بالمصانع الكبيرة التي شيدها للمواطنين، فلم يعد أحد بلا عمل، ولم يعد أحد يستورد المصنوعات من الغرب، لا سيارات ولا طائرات، قل له أننا أكلنا من زرعتنا، ولبسنا من نسيجنا، وشربنا من أنهارنا، فانت عذبة رقراقة، وسبحنا في بحرنا دون قهرٍ أو قيود، حتى أن أعداءنا باتوا يخافونا أكثر

Digitized by Birzeit University Library

مما مضى؛ فسلاحنا الذي صنعناه غريب، وفعله عجيب، ولم يعد مداه قريبا، فطلب شراءه العدوّ قبل الحبيب...

وفي أثناء ذلك الحديث مرّ صديقه فدعاه لحضور لمهرجانٍ كبيرٍ سيحضره معالي وزير الصحة، وعطوفة الوكيل، وسيادة العميد، وحضرة الرائد، وجماعة المحافظ، وعشيرة التّجار، (ومطبلو) الدّفوف والمطربون، ولكنه اعتذر له عن الحضور، وعندما سأله عن السبب أجابه: أنا لا ستطيع الصمود أمام كلّ هذا الجمال، فقلبي الصغير لا يحتمله.

عاد إلى بيته، وقبل أن يصله سمع صراخ أولاده يبكون، فظنّ أن جوعهم قد زاد، وصبرهم قد نفد، أسرع في مشيته وقلبه يرجف خوفاً.

وبعد وصوله المكان، سرّح نظره في أنحاء البيت، فتفاجأ بأن صاروخاً قد سقط على سقيفتهم المتهالكة، فلم يعد لهم غطاءً يقيهم من حرّ الصيف ولا برد الشّتاء سوى السّماء...

عاد إلى الاحتفال مسرعاً، وقفز على خشبة المسرح المزركش بصور الشّهداء والأبطال، وسط ذهول الحاضرين، أوقف الموسيقا الصاخبة، والدّبكات الشّعبية، وصاح بأعلى صوته: عاش الوطن، عاش...

Digitized by Birzeit University Library

هدية جحا

كان بائع الكتب في حارة جحا ينادي دائما أصحاب العقول كي يمتّعوا أنفسهم بالجديد من الكتب، فالكتاب كما يقول للنّاس موطن الأفكار، وسرج الفارسين، ولسان الشّعراء البارعين، ومنبع فكر الثائرين، به نعرف أخبار الماضين، وكيف فتح أجدادنا بلاد الفرس والعجم، وكيف رفّرفت راياتنا في كلِّ الميادين...

كان جحا يحبّ هذا البائع كثيراً؛ فهو يراه ذا ثقافة واسعة ونظرة ثاقبة، يقرأ الكتاب ويحتضنه كأم أمسكت وليدها، فيجلس عنده ويتناقش معه في أمورِ الحياة والعلم، وفيما كتبه بعض الفلاسفة والشّعراء، فيبدآ في قراءة كتاب ما ومناقشته، ولا يتوقفان إلا عندما يمرّ رجلٌ غريبٌ يسأل عن محل سندريلا للأحذية الرّاقية، أو طفل يلعب في الشّارع قد أزاح كرته نحو بائع الكتب، يركض خلفها ثم يتناولها من بين الكتب دون إذن أو اعتذار، فيعلو صوته لينادي صديقه الآخر ليكملا لعبة لن تنتهي الا مع صياح أم أحدهما للعودة إلى البيت...

أرادت زوجة جحا أن تزور قريبها عضو الحكومة؛ لتهنئته بوظيفته الجديدة.

Digitized by Birzeit University Library

مرّت بزوجها وهو يجلس مع صديقه بائع الكتب، وطلبت منه أن يشتري لها كتاباً من صديقه بائع الكتب لتهديه لقريبها.

لكن جحا رفض طلبها، واشترى لها علبة حلوى وخزنةً فارغة...

قال له بائع الكتب: لمَ لمْ تعطيه من كتبك القديمة كتاباً؟

أجابه: لا تعط الكتاب لمن يحمله على ظهره...

سألته زوجته: لكن، لم أهديته الخزنة الفارغة؟

أجابها: سيحتاجها يوما ما، أنه يعمل في حكومةٍ عربية...

Digitized by Birzeit University Library

المؤلّف في سطور

د. بسّام عبد المنعم الحاج.

- دكتوراه في *اللغة العربية(أدب ونقد حديث)* ٢٠٠٥م.
- مواليد فلسطين- *رام الله- دير السودان.*
- يعمل مديراً في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ٢٠٠٨- الآن.
- يعمل مدرّساً - غير متفرغ- في جامعة بيرزيت.
- نشر كتاب (الرواية النسائية الفلسطينية ١٩٧٣- ٢٠٠٠م)،دراسة أدبية نقدية، ٢٠١٦م.

Digitized by Birzeit University Library

- نشر كتاب(حنّون أيار) مجموعة قصص قصيرة جداً ٢٠١٦م.
- نشر كتاب(نزف قلم) مجموعة قصص قصيرة جداً ٢٠١٨.
- نشر كتاب(حرّاس البيادر) مجموعة قصص قصيرة، مستوحاة من التّراث،٢٠١٩.
- نشر كتاب(وهج المعاني) مجموعة قصص ومضة، ٢٠٢٠م.
- هذا الكتاب(جحا في رام الله) مجموعة قصص قصيرة، من الأدب السّاخر.
- له العديد من الدّراسات والأبحاث العلمية المحكّمة.
- شارك في العديد من المؤتمرات العلمية.
- نشر العديد من المقالات في الصحف المحلية والالكترونية المختلفة.
- حاصل على شهادات تقدير في كتابة القصة القصيرة جداً والومضة القصصية.

Digitized by Birzeit University Library

الفهرس

إهـداء ٥
المـقدّمة ٧
تقديم ١١
جحا في ضيافةِ الوالي ١٥
زيارةٌ في ربوع الوطن ٢١
جحا في رام الله ٢٧
جحا والبقرات ٣٢
جحا وحمير الوالي ٣٧
جحا وزعامة البيت ٤١
جحا وعلامة النّصر ٤٣
هكذا قال الوالي ٤٧
سيّارة جحا ٥٢
دكانُ جحا ٥٥
جحا يوصي ابنَه ٥٧
عمّي جحا، أنت غلطان ٦١
جحا المفقود ٦٥
جحا والكورونا ٦٩
جحا مع الوزير ٧٣
نقّال جحا ٧٧
جحا والهندسة ٨١
جحا يوزّع الحلوى ٨٥

Digitized by Birzeit University Library

جحا أصبح معلماً ٨٧
في بيت جحا حريقٌ ٨٩
الشّرطة وجحا ٩٢
جحا والفيسبوك ٩٧
جحا والعزاء ١٠١
شهادات جحا ١٠٣
هتاف جحا ١٠٥
هدية جحا ١٠٧
المؤلّف في سطور ١٠٩

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

جُحا في رام اللّه

مجموعة قصصية من الأدب السّاخر، يتناول فيها الكاتب قضايا سياسية واجتماعية في المجتمع العربي، يكون جحا فيها الشخصية الرئيسية، ينظر إلى واقعه الحزين، فيبكي حيناً، ويضحك حيناً آخر، ويصرخ في وجه المسؤول تارةً أخرى، ويكتب له بسخريةٍ مخفية احياناً، لأنه يريد أن يتجنب سوط الوالي. علّه بهذا يحدث تغيراً في هذا الواقع السوداوي الذي يرفضه... يحمل همّ الوطن على ظهره، ويمشي به إلى الضياء، علّه يصل...

د. بسّام عبد المنعم الحاج.
عضو اتحاد الكتاب والأدباء الفلسطينيين
دكتوراه في اللغة العربية (أدب ونقد حديث)

Digitized by Birzeit University Library